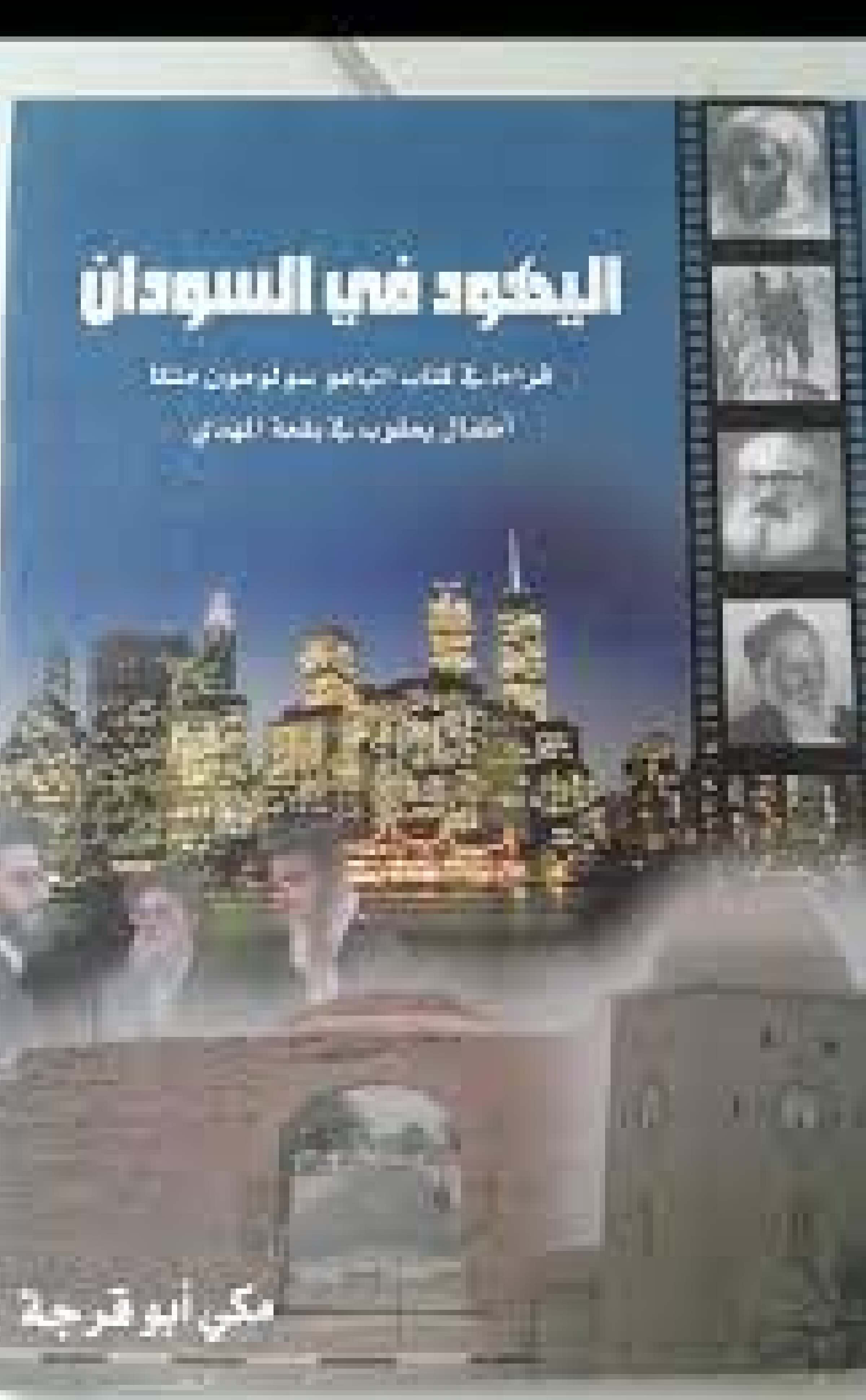

اليهود في السودان
مكي أبو قرجة

مقدمة

وقفة الشاعر الثائر
في وجه السلطان الجائر

في موقفٍ جاش فيه بعواطفه الثورية الرومانسية وبشممه وإبائه المعروفين كتب السفير السوداني بالجزائر الشاعر صلاح أحمد إبراهيم في عام ١٩٧٤ رسالة غاضبة الى الرئيس جعفر نميري قادحاً وشاجباً تصريحات عاجزة كان قد أدلى بها الرئيس للصحافي المصري أنيس منصور نشرها في العدد الأول من مجلة (أكتوبر). لم ينتظر صلاح رداً على رسالته،، لملم أوراقه وأشياءه وغادر السفارة غير آسف، ومن ثم توجه الى باريس التي اتخذها منفى اختيارياً له حتى أدركته المنية في عام ١٩٩٣. كانت تلك التصريحات ضرباً من لغو الحديث،، ما استطاع أعوان نميري الذين حضروا اللقاء احتواءها بحذف المثير منها فقد أصر أنيس منصور على نشرها كاملة. خلّفت تلك التصريحات آثاراً مؤلمة حيث أصاب رشاشها بعضاً من الدول الشقيقة، إلا أن ما أغضب صلاحاً حقاً فقد كان ذلك الحديث الخاص بإعدام الشفيع أحمد الشيخ - رئيس اتحاد نقابات العمال. فقد كان نميري يحاول تبرير فعلته المنكرة بمحاكمة المدنيين أمام المحاكم العسكرية.. حيث راح ثلاثة مدنيين من خيرة أبناء شعبنا، وهم الشفيع وعبدالخالق محجوب وجوزيف قرنق، ضحايا لذلك الرعب الذي أعمى الزعيم عن رؤية الحق الصريح، وعن قواعد القانون والعدل والإنصاف. قال نميري ان اليهود. هم الذين جاءوا بالشيوعية الى السودان وأصهار الشفيع هم من اليهود، وأشار الى عائلات سودانية أخرى بوصفها يهودية. ما كان يدري ما يقول.. فالرجل ما كان يكترث بتاريخ بلاده السياسي والاجتماعي ولا ثقافتها.

وما كان يدرك أن أصهار الشفيع هم من العائلات السودانية العريقة المعروفة، من

دنقلا حتى القطينة فأم درمان، (وهم نفرٌ كريم من أهلنا). وما كان صلاح غافلاً عن ان الديانة اليهودية ليست سُبة ولا معرة - فهم أهل كتاب - لولا ارتباطها بالمشروع الصهيوني الذي اغتصب الحقوق الفلسطينية .. ولكنه أدرك الخبث المنطوي في ثنايا حديث نميري ومحاولته النيل من الشفيع وزوجته السيدة الفضلى فاطمة أحمد ابراهيم الناشطة السياسية المعروفة.

قدم الكاتب السوداني شوقي ابراهيم بدري مساهمة بارزة بكتابه ((حكاوي أم درمان)) حول التاريخ الاجتماعي لمدينته - التي أحبها - خلال السنوات التي تفتح وعيه فيها. وتعرض بصورة حانية ومحبة لبعض العائلات اليهودية التي أقامت بالمدينة منذ المهدية، ونوه بفضلها واندماجها في الحياة السودانية. فنساؤها أنجبن من السودانيين أفضل الأبناء والبنات. فالسيد محمد الفضل أول مدير عام سوداني لمصلحة السكة الحديد - خال الشاعر صلاح أحمد ابراهيم واخوته - أنجب من السيدة وردة اسرائيل الدكتور فاروق - المقيم حالياً في بريطانيا، والدكتور فيصل عليه رحمة الله، والدكتور فتحي - المقيم حالياً في براغ - وشقيقاتهم فاطمة وفتحية وفائزة، وجميعهم كرسوا حياتهم وقدموا تضحيات جسام في سبيل ما اقتنعوا بأن فيه خيراً للسودان، والمرحوم الدكتور فيصل اخصائي الباطنية أذكره بالخير والمحبة فقد التقينا وتصادقنا وتقاسمنا الخبز وحب الوطن في أيام لاتزال ذكراها عابقة وراسخة.

وآل اسرائيل بأم درمان - الذي تمسك أيضاً بدينه الإسلامي - وصفهم شوقي بأنهم في عزم الأسود يفيضون وطنية ورجولة. وقد أنجب إسحاق اسرائيل من كريمة السيد محمد عبدالرحيم - المؤرخ الشهير - منصوراً وسميرة واخوتهم الذين عرفوا بأنبل الخصال وأشرف المواقف.

شهد المجتمع السوداني في القرن التاسع عشر - خلال الحكم التركي - وجود عدد كبير من الجاليات الأجنبية، أتراك ويونانيين وإيطاليين وروس وبريطانيين وفرنسيين وألمان ويهود - غير المغاربة الذين وفدوا منذ مئات السنين. لم نجد فيما هو متاح من الكتابة عن تاريخ السودان ذكراً لليهود قبل ذلك، عدا الإشارة الى

الرحالة اليهودي اليمني صالح روبين الذي زار السودان في أوائل القرن السادس عشر إبان نشوء دولة الفونج الإسلامية. وقد كتب انطباعات يشير إليها المؤرخون من وقتٍ لآخر.

إلاّ أن عدداً من المؤرخين المحدثين أشاروا إلى وصول أعداد من اليهود في مراحل مبكرة. وذكروا أن مجموعة فيلة التي استقرت في مصر لفترة من الزمن أُجبرت على الرحيل فتوجهت جنوباً وربما تكون قد أقامت في مناطق مختلفة بالسودان. كما ذكروا أن منليك الذي كان ثمرة الزواج بين نبي الله سليمان وبلقيس ملكة اليمن عاد إلى اثيوبيا يصحبه جماعة من رفاقه باحثاً عن ملك أجداده، وقالوا أنهم ربما حملوا معهم ألواح موسى.

وعندما اندلعت الثورة المهدية في أنحاء السودان المختلفة وباتت الخرطوم هدفاً لها أخذ الأجانب يتسللون هاربين. وبعد تحريرها في يناير ١٨٨٥ اتخذ الإمام المهدي من أم درمان عاصمة للدولة الوطنية. وانتقل من تبقى من سكان الخرطوم الى العاصمة الجديدة. وكان من بينهم أقباط ويونانيون ومجموعات أخرى من الكاثوليك والبروتستانت - بعضهم قساوسة وراهبات - وقد أسلموا جميعهم وأُطلق عليهم اسم المسالمة. أما اليهود فقد كانوا ثماني عائلات من السفارديم (هؤلاء الذين عاشوا في الأندلس أيام مجدها الزاهي وعصرها الذهبي الذي انطوت صفحته بسقوط غرناطة في عام ١٤٩٢).

لم تتوفر للمؤرخين والمهتمين معلومات كافية عن هذه الجالية اليهودية التي أشهر أفرادها الإسلام وعاشوا بين الناس طوال سنوات المهدية.-وبعد سقوطها في يد الاستعمار البريطاني ارتد معظمهم عن الإسلام وعادوا لليهودية سافرين. وظلت أقلية منهم على دينها - هؤلاء الذين لاتزال الأجيال الثالثة والرابعة وربما الخامسة تعيش بيننا حيث اندمجوا في محيطهم على النحو الذي ذكرناه فيما سقناه من نماذج.

وفي تقرير لمخابرات الإدارة البريطانية بالسودان أعده سردار الجيش المصري لوكيل وزارة الحربية تم حصر رعايا دولة الحكم التركي المصري الذين بقوا في

السودان بعد تحرير الخرطوم. يشتمل التقرير على عدد غير قليل من الأرمن والسوريين والإيطاليين والقبارصة والهنود واليونانيين، إلاّ أن قسما خاصا في هذا الجزء من التقرير أفرد لليهود، إذ تم الافصاح عن الاسم الأصلي لكل منهم وتفاصيل عن عدد أفراد الأسرة واسمائهم والاسم الذي فرضه عليهم دخولهم في الإسلام بالاضافة الى بعض التفاصيل الأخرى. وجاء تقسيم اليهود في التقرير المذكور إلى أربع مجموعات أكبرها في الخرطوم (خمس أسر) ثم كردفان (أسرتان) وبربر (أسرة واحدة) ثم كسلا (أسرة واحدة).

الخرطوم: موسي بسيوني، واسحاق بسيوني، وابراهيم اسرائيل، وخضير، ونسيم حيفاس، وكردفان: داؤود منديل، وجوزيف سليمان، وبربر: مراد بيسي، وكسلا المليح زابت.

وفي بداية القرن العشرين أخذت أفواج اليهود تتدفق نحو السودان - تجاراً ومغامرين وموظفين في السلطة الاستعمارية ومؤسساتها. ولم يلبث التجار منهم أن استأنفوا نشاطاً تجارياً محموماً في أسواق جديدة واعدة. فكونوا الشركات وراكموا الثروات وشيدوا المنازل الواسعة الفخمة وانتقل بعضهم الى المدن الإقليمية، وأدخلوا أبناءهم المدارس، كلية غردون وكمبوني.. أقاموا علاقات واسعة مع السودانيين وتشربوا الحياة الثقافية السودانية وتأثروا بالقيم الاجتماعية والأخلاقية. إلا أنهم ظلوا يهوداً ملتزمين بديانتهم، فأقاموا معبداً ونادياً اجتماعيا، وأخذوا يتصاهرون في إطار جاليتهم.. تكاثروا حتى بات لديهم مقبرتان في الخرطوم وأم درمان. استمر حالهم ذاك حتى تفجر الصراع العربي - الاسرائيلي وأعلن الكيان الصهيوني قيام دولته عام ١٩٤٨ فحدث تحول واضح في شعور العرب والمسلمين تجاه اليهود المقيمين ببلدانهم وإن لم يرق الى مستوى المضايقات السافرة حتى وقع العدوان الثلاثي على مصر في عام ١٩٥٦. أخذت الجاليات اليهودية في الدول العربية - بما في ذلك السودان - ترتب أوضاعها وفق رؤى جديدة، فأخذوا يتسللون الى اسرائيل والى الدول الأوروبية والولايات المتحدة.. وفي السودان ربما يكونوا قد تباطأوا قليلاً إلا أنهم أخذوا يغادرون عائلات وفرادى عبر

مصر واريتريا حتى منتصف سنوات الستين.

عندما زار شوقي بدري فلسطين المحتلة استقبله اليهود السودانيون المقيمون في تل أبيب وغيرها من المدن بكثير من الترحاب وبالغوا في إكرامه والاحتفاء بمقدمه، ورفض أصحاب المطاعم منهم أن يتقاضوا قيمة ما تناوله من وجبات، وأمر أحدهم عماله بأن يعتبروه ضيفاً في كل الأوقات، وكان يردد له ((أنتم السودانيون خيرة الرجال))

وفي كتابه المليء بالعجائب والمفارقات يروي شوقي ان ((الياهو بن اليسار اليهودي السوداني الذي ترأس الكنيست كان أثناء دراسته في جامعة الخرطوم عضواً في الحزب الشيوعي السوداني، وكان كادراً نشطاً يجيد تحريك ماكينات الطباعة السرية الخاصة بالحزب وتوزيع المنشورات وقد عرفه كثير من الناس مناضلاً جسوراً ضد ديكتاتورية عبود)) وكثيراً ما يروي صحافيون سودانيون قصصاً عن لقاءات مع الياهو في مطارات وعواصم أوروبية فيندفع نحوهم معانقاً بانفعال ومحبة.

وفي كتابة لاحقة عبر الانترنت ذكر شوقي بدري ان كثيرا من الشوام الذين عاشوا بالسودان كانوا يهوداً أمثال عائلة قرنفلي وآل ساسون الذين ارتبطوا بمنطقة كردفان، ومن ابنائهم موسى مؤلف كتاب «سبع سنين في بلاد المصريين». وتحدث شوقي أيضا عن آل بسيوني وقال إنهم كانوا من كبار التجا ر في العهد التركي ثم أقاموا دكاكين خلال فترة المهدية بأم درمان.

وقال إن موسي ويعقوب بسيوني كانا مسؤولين عن مالية وتجارة الأمير يعقوب (جراب الراي)، وكان بالقرب من متاجرهم متاجر آل عبودي اليهودي.. حيث كان ابراهيم عبودي يحفظ القرآن الكريم. وأشار إلى انتقال عائلته إلى مدينة نيويورك خلال سنوات الخمسين والستين من القرن العشرين ولايزالون يتحدثون مع ابنائهم بلهجة ام درمان. أما موريس عبودي فلديه متجر متخصص في بيع لعب الأطفال والأحذية النسائية ولايزال يردد باستمرار أغنية «البنسلين ياتمرجي». وجوزيف لديه شركة للتحف والصيني، بينما يترأس ابنه ابراهيم الجمعية اليهودية في

نيويورك. والدكتور شلومو - الذي تخرج من جامعة الخرطوم- فلديه مستشفى خاص في نيوجيرسي، أما الاصغر داؤد فهو محامٍ. يوسف عبودي شقيق ابراهيم كان يسكن بالقرب من سينما الحلفاية بالخرطوم بحري. لم ينس شوقي أن يذكر نسيم قاوون الذي أقام عرساً سودانياً لابنه في هوتيل داؤد بتل أبيب.

وحتى الأجيال الجديدة من اليهود السودانيين التي لم تر ذلك البلد البعيد وعاش معظمها في أوروبا تحمل ذكريات غامضة وحباً مبهماً للسودان.. ولعله من أغرب الأحداث أن يسافر الشاب الإيطالي جوزيف مارينجون - حفيد راشيل ليفي التي عاشت بالسودان - الى نيو جيرسي بالولايات المتحدة عام ١٩٩٤ ليشارك مجموعة من يهود السودان الذين قدموا من أوروبا وأماكن أخرى لتقديم العزاء في وفاة زوجة ابن حاخام الجالية اليهودية التي كانت تقيم بالسودان.. ذلك الوطن الذي بات مستحيلاً.

هؤلاء اليهود هجروا السودان وحملوا ثرواتهم التي كونوها فيه ونقلوا شركاتهم الى أوروبا والولايات المتحدة وامتدت فروعها في كافة أنحاء العالم، وانقطعت صلاتهم بالسودان بعد أن صودرت جوازاتهم، واندفعوا يدعمون الكيان الصهيوني ويقدمون فلذات أكبادهم مجندين في جيش الدفاع الاسرائيلي الذي ما فتئ يلغ في دماء الفلسطينيين الأبرياء. هؤلاء اليهود لم يستطيعوا نسيان السودان ولم تعوضهم اسرائيل عن ذلك الحنين الجارف الذي يلف أرواحهم،

فاجأني الصديق الدكتور كمال إدريس،، الطبيب المهتم بالثقافة الوطنية بأن أهداني نسخة مصورة من مؤلف نادر كتبه اليهودي الياهو سولومون ملكا قامت بنشره وتوزيعه مطبعة جامعة سيراكوز الأميركية عام ١٩٩٧. والمؤلف هو ابن كبير الحاخامات للجالية اليهودية في السودان، سولومون ملكا (١٨٧٨ - ١٩٤٩) - الذي قدم الى السودان من منطقة طبرية بفلسطين الى أم درمان في أغسطس عام ١٩٠٦، وكان عهد ذاك في الثامنة والعشرين من عمره،

حين أعد مؤلفه هذا كان الكاتب قد بلغ الثامنة والثمانين، وكان يمكن أن يموت منذ وقت طويل دون أن يؤرخ للجالية اليهودية في السودان،، ويكون بذلك قد ضاع جزء

مهم من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للسودان، حمل المؤلف عنوان ((أطفال يعقوب في بقعة المهدي.. اليهود في السودان))

لم يمض وقت طويل حتي اتحفني الصديق الدكتور محمد صادق جعفر بالنسخة الأصلية للكتاب فأتاح لي فرصة الترجمة والاندفاع في قراءته بالرؤية التي اعتقد أنها تمكن القارىء السوداني من الوقوف على تلك التجربة التي لم يخضها أحد سوى الياهو ملكا.. فمن هو؟..

في العام الماضي ٢٠٠٣ عثرت على اسمه من بين مجموعة من الناس شاركت - من داخل وخارج السودان- بكلمات في حفل تأبين المرحوم محمود حاج الشيخ عمر المحامي، وكان الياهو قد بعث ببرقية جسدت مثابرته على مشاركة السودانيين في أفراحهم وأتراحهم. فالرجل لايزال يحتفظ بذكرى الوطن الذي ولد ونشأ فيه وعاش حتى كهولته حاملاً جنسيته وشديد الاعتزاز والفخر به. إلاّ أنه شأن سائر اليهود كان يحمل في داخله انتماءً آخر ويسعى إلى تحقيق حلم كرس حياته كلها من أجله كما يبدور ذلك جلياً في كتابه. والواضح ان الجالية اليهودية التي عاشت بالسودان جاءت من أجل قيام وطن لليهود في فلسطين.. وساهمت بكل ما تستطيع لتحقيق ذلك الهدف. كان زعماء الحركة الصهيونية والعالمية يزورون الخرطوم بشكل منتظم يشرفون ويوجهون. كما كانت الجالية اليهودية بمصر تقدم العون والمساعدة في الحركة والتنظيم لنظيرتها - أو فرعها بالأحرى- في السودان.

كان الياهو منذ أن اشتد عوده في ثلاثينيات القرن العشرين يغادر الخرطوم في عطلاته فيزور فلسطين- وهي تحت حكم الانتداب البريطاني: يلتقي بأناس معينين وينضم لتنظيمات شبابية تؤدي مهامهاً في اطار الأهداف الصهيونية. لم يخف ذلك في كتابه ولم يلجأ للف والدوران بل ظل يعلن باستمرار أنه عاش حياته من أجل شعبه اليهودي. لم يكن الياهو يبدي أي اهتمام بالحركة الوطنية في السودان فقد عاصر ثورة ١٩٢٤ وهو في الخامسة عشرة من عمره فلم يشر إلى انطباعاته عنها من قريب ولا بعيد، كما لم يهتم بحركة الخريجيين وزخمها منذ أواخر الثلاثينيات. كان اهتمامه بالقضايا الصهيونية وإعلان دولة اسرائيل وبناء تنظيمات «بناي-

بريثْ يملأ عليه اقطار نفسه.

عاش الياهو حياة ناعمة مترفة في الخرطوم حيث كان موظفا كبيراً في شركة جلاتلي واستمتع بأيام وليالي الخرطوم وهي في عنفوان عزها الاجتماعي. واتاحت له وظيفته السفر في العطلات إلى أجمل بلاد الدنيا وتعليم طفليه في أرقى الجامعات العالمية.. إن تجربته الشخصية لجديرة بالقراءة بالاضافة إلى ما اتاحه لنا من معلومات عن الجالية اليهودية التي تنامت وازدهرت في السوان لأكثر من ستين عاماً. إلاّ انه يجنح قليلاً نحو المبالغة ويميل للزهو وخاصة فيما يتعلق بالنجاح الذي أصاب اليهود في السودان والخدمات التي قدموها للبلد، كما يفخر كثيراً عندما يتابع أفراد تلك الجالية في مهاجرها الجديدة.

أقدم هذه القراءة لهذا الكتاب بعد ان استبعدت عنها كل ما ساقه المؤلف من تاريخ وجغرافية السودان التي بدا لي ان معلوماته عن ذلك ضعيفة وعادية في معظم الأحيان لاتقدم جديداً للقارىء السوداني.

هذه القراءة تم نشر معظمها في حلقات بصحيفة الاتحادْ الظبيانية وكثير من الصحف السودانية.

المؤلف

يهود المهدية يرتدون عن الإسلام بعد دخول الإنجليز

وصف ملكا -مؤلف كتاب (أطفال يعقوب،،)- بن -سيون كوشتي راعي الجالية اليهودية بأم درمان في أيام المهدية بأنه كان رجلاً طويل القامة أحمر اللحية مهيب الطلعة. وقد تغيرّ اسمه بعد اشهاره لاسلامه -هو وبقية أفراد الجالية- الى بسيوني وبات ممثلاً لتلك المجموعة الصغيرة يحمي مصالحها المحدودة بظهوره في دواوين الدولة المهدية. وظل يمارس طقوس عبادته سراً رغم ادعائه الاسلام حيث انه كان ابناً للحاخام ماير بيشور كوشتي حاخام الخليل. وبعد سقوط دولة المهدية وارتداده عن الاسلام، هو ومعظم أفراد الجالية -تم اختيار بسيوني- التركي الأصل- رئيساً للجالية اليهودية مدى الحياة،، واستمر في منصبه هذا مابين (١٩٠٨-١٩١٧).

كانت العائلات اليهودية الثماني التي بقيت بأم درمان جميعها من السفارديم ما عدا عائلة سليمان منديل الذي ربما يكون من الاشكنازي. وقد تمسك باسلامه ولم يؤثر الردة. وقد ذكر المؤلف ان منديل الذي تحول اسمه من ماندل لم يذعن لمحاولات الحاخام ملكا باقناعه للعودة الى اليهودية بدعوى ان شقيقاته كن سمر الألوان لأن والدتهن سودانية وانهن لن يجدن أزواجاً من بين اليهود البيض الذين أخذوا يفدون من مصر. وقد عرف ابنه داؤود سليمان منديل بنشاطه الصحافي حيث كان أول من أصدر الجريدة التجارية ونشر الوعي الاقتصادي. وعندما اندمجت الجريدة التجارية مع مجلة ((حضارة السودان)) صار اسمها ((ملتقى النهرين)) وبات داؤود منديل صاحبها ورئيس تحريرها، وقد عمل معه الشاعر التجاني يوسف بشير صحافيا، واهتم داؤود منديل بالتراث السوداني، وكان أول من طبع الدوبيت السوداني وراتب الإمام المهدي وطبقات ود ضيف الله وكثيراً من الأدب السوداني،

وبالاضافة الى عائلتي بسيوني ومنديل فقد كانت هناك عائلات شالوم صمويل حكيم وأخيه اصلان ونسيم شالوم وخضر داؤود. ارتد معظمهم الى اليهودية

وحولوا معهم زوجاتهم السودانيات المسلمات فتهودن وذهب بعضهن وأقمن باسرائيل، في الفترتين قبل وبعد المهدية عمل هؤلاء اليهود في التجارة فكانوا يصدرون المنتجات السودانية كالصمغ العربي والجلود وسن الفيل وريش النعام ويستوردون الأقمشة والصابون وغيرهما. وبعد الفتح تزايدت اعدادهم وشيدوا ((محفل بناي - برث)) في الخرطوم وأطلقوا عليه اسم بن - سيون كوشتي (بسيوني) تخليداً لذكراه،

كان بسيوني هذا متزوجاً من امرأة يهودية أقامت عائلتها في مصر، الاّ ان ذلك الزواج لم يعمر طويلاً لأنها لم تنجب. وبعد دخوله الاسلام تزوج من امرأة سودانية مسلمة تدعى مانا (**MANNA**) وهذا الاسم لم يكن متداولاً في المجتمع السوداني. وأغلب الظن انه ((الله معانا))، وهو من أسماء الجواري ،، وقد تكون من بقايا أرقاء الخرطوم الذين تبعثروا بعد الفتح، فأنجب منها أربعة أطفال، نعيمة (نعومي) وايستر وديفيد وسليمان (سولومون)، ونشأوا جميعهم نشأة متميزة في السودان، ماعدا ديفيد الذي مات في الخرطوم. وقد أصبح الدكتور سليمان بسيوني من أشهر وأوائل الأطباء السودانيين وأظنه تولى منصب حكيمباشي مستشفى الخرطوم. وقد هاجروا الى اسرائيل عبر اريتريا وعاشوا في منطقة حولون. وهناك أعاد الدكتور سليمان بسيوني اسم عائلته القديم -بن سيون كوشتي- وظلت الله معانا مخلصة للديانة اليهودية التي تحولت اليها.. وحافظت على التقاليد والأجواء اليهودية في منزلها وقامت بتربية أولادها وفقاً لتلك الطقوس،

وتزوج شالوم حكيم بدوره من امرأة من السفارديم القاطنين بالقاهرة اسمها ايستر انجبت له ثلاث بنات وهن روز وجارسيا وشارينا وولدين هما فيكتور وصمويل. وقد تزوجت هؤلاء الفتيات من شباب يهود وفدوا من مصر.. روز تزوجت من ابراهيم سيروسي الذي أصبح في وقت لاحق رئيساً للجالية اليهودية في السودان.. وجارسيا تزوجت من ليون أورتاسي الذي أصبح نائباً لرئيس الجالية..أما شارينا فقد تزوجت من يعقوب عدس. وقد عمل فيكتور مع عمه رافائيل حكيم في تصدير ((السنامكة)) ومنتجات سودانية أخرى. ويذكر الكاتب

انه عندما كان في العاشرة من عمره بأم درمان اعتاد ان يقضي العطلة الصيفية في مكاتب فيكتور ورافائيل حكيم حيث كان يهوي جمع الطوابع الأجنبية التي كان ينتزعها من الرسائل والطرود التجارية. أما صمويل -شقيق فيكتور- فقد عمل محاسباً في مشروع الجزيرة،

وفي خلال فترة اسلامه في عهد المهدية تزوج شالوم حكيم من امرأة أخرى سودانية تدعى روزا سليمان هندي (قد تكون من سلالات مواليد الخرطوم). وبعد وفاة زوجها هاجرت الى فلسطين حيث اشتهرت باسم روزا السودانية. اما ابناؤها فقد استقروا في الولايات المتحدة.. احدهم جيرشون حكيم الذي أصبح فراءً في مانهاتن، وأصلان حكيم تزوج من فتاة سودانية أنجبت له بنتاً سمياها فورتونا. اما نسيم شالوم، الذي عاش في أيام المهدية فقد توفي بأم درمان وعادت عائلته الى مصر، وأصبح أحد أبنائه مهندساً زراعياً في حقول القطن في كوم أمبو ثم مسؤولاً في الأمم المتحدة حيث عاد في سنوات الأربعين من القرن الماضي باحثاً عن قبر والده. وقد التقاه مؤلف الكتاب ايلي ملكا مصادفة في مقبرة اليهود بأم درمان حيث عثرا على قبر بن - سيون كوشتي،

أما خضر داؤود، الذي عاش فترة المهدية بأم درمان أيضاً، فقد خلف ابنة واحدة تدعى راشيل تزوجت من ميناشي يوسف ليفي وأصبحت قابلة معروفة تولد نساء اليهود وغيرهن. وقد التحق أحد أبنائها -جوزيف- موظفاً بالشركة التي عمل فيها المؤلف بالخرطوم، ثم عاد الى مصر حيث تزوج ومات هناك. أما ابنتا راشيل جوزفين وفيكتوريا فقد غادرتا السودان الى أسمرا، ومن هناك الى ايطاليا حيث أقامتا هناك وتزوجتا. وفي عام ١٩٩٤ التقى المؤلف بابن جوزفين -حفيد راشيل- في نيوجيرسي، وكان شاباً ايطالياً في الحادية والعشرين جاء ليشارك مجموعة من يهود السودان تقديم العزاء في وفاة جين ملكا بات دانون زوجة شقيق المؤلف، ديفيد ملكا.

جاء مراد إسرائيل العيني في القطارات التي حملت قوات كتشنر عام ١٨٩٨ في خط السكة الحديد الجديد الذي تقدم نحو الجنوب من مصر لأول مرة. وكان العيني

متعهداً للمواد الغذائية والتموينية خلال تحرك الجيش منذ خطواته الأولى. وبعد وصوله الى مدينة الخرطوم بحري - التي كانت آخر محطة للسكة الحديد حيث لم يكن كوبري النيل الأزرق قد تم تشييده بعد فلم يصل القطار الى العاصمة- كافأته سلطات الفتح بمنحه أول ترخيص تجاري ليفتح محلاً في الخرطوم بحري.. تلك المدينة الوليدة عهد ذاك.. عاد العيني الى مصر وأحضر والديه وزوجته الشابة فريدة. وفي وقت لاحق لحق به أخواه داؤود وموسى العيني. والأخير كان لايزال طفلاً في الرابعة من عمره. وبعد ان مات وهو في السادسة والأربعين ترك أرملته وأبناءه وهم صالح وسليمان وابراهيم وزكي، الذين تمكنوا من تطوير مؤسسته التجارية التي توسعت حتى غدت شركات كبرى في المنطقة. وفي حوالى عام ١٩١٠ انضم اليهم في مدينة الخرطوم بحري ابراهيم كوهين القادم من القاهرة وساسون عزرا الذي جاء من بغداد يصحب ابناءه الكبار وترك زوجته وبقية عائلته في الهند ريثما تستقر أحوالهم في المهجر الجديد. وأيضاً فعل شاوول الياهو الذي وصل من البصرة عبر القاهرة تاركاً زوجته وأطفاله في الهند الى حين ترتيب أوضاعه في السودان،



منزل حبيب كوهين لا يزال قائماً في الخرطوم شرق

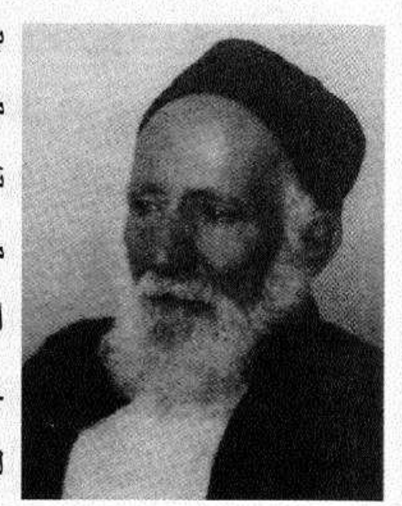
وقد استطاع هؤلاء الغرباء تحت مظلة الادارة الاستعمارية ان يؤسسوا محلات تجارية كما شيدوا منازل واسعة وجميلة قريبة منها، وبعضهم توجه نحو مناطق أخرى حيث اتجه شاوول الياهو الى مروي وأقام فيها مع زوجته يعمل في التجارة محتفظاً في الوقت نفسه ببيت في الخرطوم حيث تعلم أولاده في مدارسها واستأنفوا حياتهم العملية هناك. وفي ظني انه ربما يكون والد الياهو بن اليسار، رئيس الكنيست السابق، الذي ظنه أحد أبناء مروي أخيراً نتانياهو فأعلن ان الزعيم الليكودي العنصري المتعجرف قد ولد في مروي بشمال السودان، فأثار ضجة في الصحف ما لبثت ان خمدت حيث لم يستطع تأكيد ذلك،

انحصر نشاط صغار التجار اليهود الذين وفدوا الى الخرطوم، العاصمة، في أوائل القرن في بيع الأقمشة القطنية والحريرية، فأفتتحوا محلات في وسط المدينة. وكان على رأسهم عائلات فرج شوا واسحاق داؤود وايلي ماشياح ويعقوب ايلون وباروخ اسرائيل. وتبعهم في أوقات لاحقة صالح وحزقيال باروخ وهيرمان بيلينستين وتشارلس وينبرج وموسى كوهين وأصلان ايتاه وسليمان قدس وموسى هراري وماثيو سدس. وقد توجه اصلان كوهين وابراهيم عدس والياس بينو وصالح باروخ الى ود مدني،

وفي أم درمان التي أصبحت سوقاً تجارياً مهماً استقرت مجموعات من اليهود الذين وفدوا من مصر خلال السنوات الخمس الأولى من القرن العشرين ومن بينهم ادوارد كاسترو ومناحيم صالح وماير ابراهيم ويوسف ارباب وعزرا ماركوس وصمويل حزقيال ويس ويوسف مزراحي. ولم يلبث ان انضم اليهم حتى عام ١٩١٥ ليون مافينفيكر وبوريس كانتزر واميل فينستين. ذلك بالاضافة الى عائلات البينو الياس وسليمان واخوتهم الذين تخصصوا في تجارة الجلود. وقد توسعت تجارتهم وامتدت عالمياً حتى اليوم على يد الجيلين الثالث والرابع الذين اقتحموا أسواق جلوفرسفيل ونيويورك ونيجيريا وغيرها من أسواق تجارة الجلود في العالم. اما ابراهيم دويك اليهودي المتزمت القادم من حلب السورية والمتمسك بتقاليد ديانته فقد أصبح هو وعائلته تجاراً كباراً للأقمشة حتى الجيل الثاني، ومن ثم لحق به

آرون وشاباتي دويك. وهناك من اليهود المستوطنين القدامى بأم درمان سليمان عاني -تاجر الجلود- ثم ايلي تمام وجبرا كوهين وجبرا بينتو وعبدالله سلطون ويوسف عبودي وعباديا صفدي، وجميعهم كانوا تجاراً يعملون في مختلف مجالات التجارة،

وصول الحاخام ملكا إلى أم درمان



بعد سقوط الدولة المهدية ودخول قوات الفتح بدأت مرحلة جديدة ذات ملامح مختلفة وارتبطت البلاد تلقائياً بالاقتصاد العالمي فأزدهرت الأسواق وانفتحت مجالات واسعة للعمل التجاري، فاندفعت الجاليات الأجنبية نحو السودان ومن بينها اليهود. ولما رأى الياهو حزان كبير حاخامات الاسكندرية التي كانت مقراً لحاخامية مصر الكبرى (حاخامباشي) تزايد عدد اليهود النازحين الى السودان دون ان تكون لديهم قيادة دينية أوصى بتوجه الحاخام سولومون ملكا الى السودان. وفي أغسطس عام ١٩٠٦ وصل ملكا الى أم درمان قادماً من طبرية بفلسطين عبر الأراضي المصرية. كان في الثامنة والعشرين حين جرى تطويبه حاخاماً من قبل مجلس مكون من ثلاثة حاخامات من الاشكناز في صفد، وعندما فرغوا من إمتحانه التفت احدهم الى صاحبيه وقال (انه سفارديم جيد) ،، وأجازوه،

ولد سولومون ملكا في المغرب في عائلة من الأحبار اليهود، وتلقى دراسته التلمودية هناك. وكان أخوه الأكبر يائيل في الثامنة عشرة من عمره حين أصبح حاخاماً تلمودياً في منطقة الطفيلات، جنوبي المغرب. وحين قرر الهجرة الى فلسطين لاستكمال دراساته التلمودية في طبرية وصفد في عام ١٨٩٨ -كان في العشرين من عمره، وكان يتوق أيضاً للعيش في تلك الأراضي المقدسة.. شأن اليهود السفارديم الذين عاشوا في شمال أفريقيا ومصر ومناطق أخرى بالشرق الأوسط،

شهد ذلك العام انعقاد مؤتمر بال في سويسرا، الذي يعتبر منعطفاً حقيقياً في تاريخ اليهود في الزمن المعاصر.. حيث قرر المؤتمرون ايجاد وطن قومي لايواء اليهود، ولابد ان ذلك المؤتمر قد سبقته اتصالات تحث اليهود على الهجرة الى فلسطين لضمان تواجد مستمر وخاصة في القدس وصفد وطبرية الى ان يشتد عود الحركة

الصهيونية التي حققت ذلك الحلم الحرام بانشاء الكيان الإسرائيلي،
ذكر الحاخام سولومون لابنه مؤلف الكتاب ان أباه -الذي كان ميسور الحال بمستوى اليهود المغاربة عهد ذاك- زوده ببعض المال. ولدى وصوله الى طبرية استأمن ماله لعم له بعيد في نسبه -من عائلة دهان- كان قد صحبه من المغرب. وكانت فكرته ان يستثمر قريبه ذلك المال في شراكة بينهما حتى يتفرغ هو لدراسة التوراة. ولكن لسوء حظه لم يلبث ذلك الرجل ان أضاع المال في مشروعات تجارية فاشلة. ولما علم سولومون ان عائلته امتلكت بساتين وحدائق قرر العودة الى المغرب للحصول على قدر من المال. ولما عاد الى المغرب استقبله أهله بحفاوة عظيمة وموكب من الفرسان أطلقوا نيران بنادقهم في الهواء، فأخجلته تلك الحفاوة وكف عن رغبته في طلب المال وعاد الى فلسطين خالي الوفاض. ويبدو ان الحاجة لأن يقيم أوده هو وأسرته دفعته لأن يغادر فلسطين ويقبل بمنصب الحاخام الذي عرض عليه ليشغله في ذلك البلد البعيد.. السودان. وحين توجه الى أم درمان في عام ١٩٠٦ ترك وراءه زوجته وابنتيه ايستر وفورتوني اللتين تكبران مؤلف الكتاب. وبعد عامين عاد الى طبرية ليصحبهن الى أم درمان حيث ولد المؤلف في نوفمبر عام ١٩٠٩. ولدى عودته استأجر الحاخام منزلاً في حي المسالمة، الذي ظل يضم اليهود والمسيحيين منذ أيام المهدية، بالاضافة الى الوافدين منهم في أوقات لاحقة. وكان ذلك الحي يعتبر سكناً مفضلاً لعائلات سودانية ذات مستوى اجتماعي أفضل.
قام الحاخام ملكا بتحويل منزله في حي المسالمة بأم درمان الى معبد يهودي مزود بمخطوطات التوراة التي جاء بها من مصر وفلسطين وتحتوي على الطقوس والاحتفالات والصلوات اليومية. واستطاع ان يؤمن لليهود الذبح وفقاً لشريعتهم في مسلخ أم درمان حيث استطاعوا الحصول على لحم ((الكشر)).
ومن الخطوات الأساسية التي اتخذها الحاخام ملكا هي تحويل العائلات اليهودية من الديانة الاسلامية، فارتد معظم الرجال مع نسائهم السودانيات المسلمات وأطفالهن بعد ان ظلوا مسلمين طيلة عهد المهدية، وذلك وفقاً لقواعد ومبادىء الهالاكا (الجزء القانوني من التلمود). وكان أول من ارتدت زوجه بسيوني التي

أعطيت اسم حنا بات ابراهام وتحول معها أطفالها نعومي وايستر وديفيد. وقد حدث ذلك في اليوم الحادي والثلاثين من يناير ١٩٠٨ خلال الزيارة التي قام بها كبير الحاخامات في الاسكندرية ومصر الياهو حزان. وسرعان ما تبع ذلك ردة روزا سليمان هندي، زوجة شالوم حكيم (من يهود المهدية أيضاً). وبعد وفاة زوجها غادرت السودان لتعيش في فلسطين.

بدأ الحاخام ملكا في إجراء عمليات ختان الأطفال حسب الشريعة اليهودية. وكان أول من قام بختانه ابنه الياهو -المؤلف- في اليوم الثاني من عمره ومن ثم أخذ الآباء اليهود يدعونه لختان ابنائهم. وكان هناك أطفال لم يجدوا من يجري عمليات ختانهم حتى بلغوا العام الثالث أمثال ديفيد بسيوني (الابن الأكبر لبن - سيون كوشتي) وأدوارد بينو (ابن الياس بينو) فقام الحاخام بختانهم.

كان المرتب الذي يتقاضاه الحاخام ملكا ضئيلاً لايكفي اعالة أسرته.. ولما لم يستطع التخلي عن منصبه الديني والجالية التي كلف برعايتها فكر في مصدر آخر للدخل حتى استطاع ان يمتلك معصرة للزيوت في الخرطوم ومصنعاً للبلاط وآخر للمكرونة والشعيرية. ولم يتطرق ابنه المؤلف لمصادر التمويل التي زودت والده برأس المال. أقام المصنع في طرف السوق العربي وفي مقدمته مجموعة من الدكاكين قام بتأجيرها لتجار التجزئة،، حيث أصبح المصنع يقع خلف المبنى.. وخلف البوابة الأمامية خصص الحاخام غرفة واسعة مريحة اتخذها مكتباً ومجلساً لاستقبال الضيوف. وقد اعتاد ان يلتقي فيها -مرة على الأقل في الأسبوع- مع الأب بولس قسيس كنيسة البروتستانت بأم درمان. وكان يتدارس معه في ((العهد القديم)) وكتاب (الرسل) باللغة العربية. وذكر المؤلف ان الأب بولس هذا كان قد ارتد عن الاسلام واعتنق المسيحية بواسطة ((الجمعية التبشيرية الكنسية)) ولم يأت اسمه هذا مصادفة فقد اعتادت تلك الجمعية ان تعطي اسم القديس بولس للمرتدين عن الاسلام، وكان هذا المكتب يستقبل أيضا كثيراً من القساوسة المسيحيين والتلامذة اليهود الذين يزورون الحاخام للدراسة والتعلم والاستشارة، وأحياناً يستقبلهم في داره بالخرطوم أيضا. ويذكر المؤلف زيارة قام بها كاهن يدعى مستر ريفنجتون

كان يدرس في مدرسة الارسالية الكنسية للأولاد في القاهرة، وقد تتلمذ المؤلف على يديه في أوقات لاحقة. فذكر انه كان يحمل معه نسخة صغيرة للقرآن الكريم باللغة الانجليزية ملأ هوامشها بالتعليقات. كان يحاول ايجاد صلة بين سور القرآن الكريم وبعض ما ورد في التلمود والمصادر اليهودية الأخرى للتشكيك في الاسلام. يفعل ذلك مع حاخام لليهود الذين يجحدون رسالة سيدنا عيسى عليه السلام. كان الحاخام ملكا محدوداً في لغته الانجليزية الاّ ان الكاهن ريفنجتون كان يجيد العربية الفصحى.

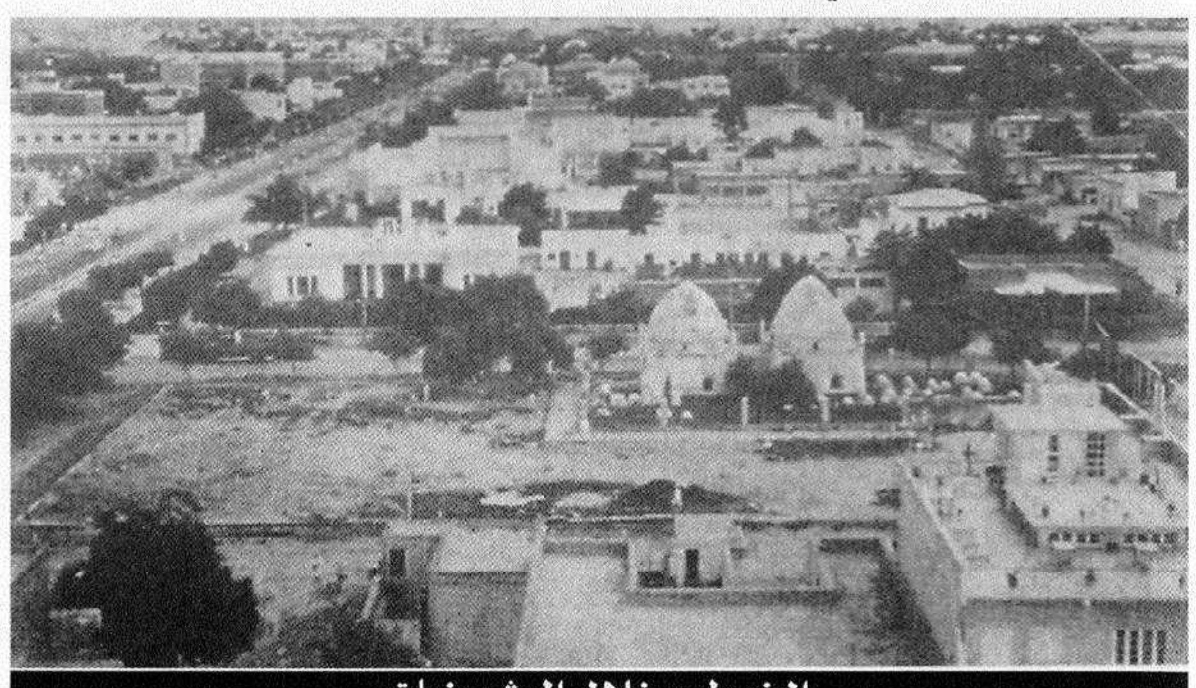
كان الحاخام ملكا يقوم بزيارة سنوية لمصر شأن كثير من اليهود الذين لم تنقطع صلتهم بها.. أطراف عائلية.. طلاب يدرسون في المعاهد أو الجامعات. وكانت عطلته تلك تستغرق مابين ستة وثمانية أسابيع ويتنقل مابين الاسكندرية والقاهرة حيث كانت تقيم ابنته فورتوني وزوجها بيرنارد جولدرنج. وكان المؤلف -ابن الحاخام- يقوم بادارة العمل في تلك الفترة، فكان يتوجه الى المصنع صباحاً قبل الدوام في مكتبه بشركة جلاتلي هانكي، ويفتح المخزن ليستخرج الدقيق ويقوم بوزنه وتسليمه للعامل المختص. وفي نهاية الدوام بالشركة كان يعود ليراجع الانتاج وتوزيعه.

كان المؤلف لايزال صغيراً عندما بدأ والده الحاخام نشاطه التجاري بأم درمان في الفترة مابين ١٩١٨ - ١٩٢٠. وقد شجع قريباً له -بعيد الصلة- يدعى مخلوف ملكا لكي يأتي من المغرب الى السودان، ودخل في شراكة معه وفتح له محلاً لبيع الأقمشة والخردوات بالخرطوم. ثم لم يلبثا ان نقلا المتجر الى مدينة الحصاحيصا حيث حققا قدراً من النجاح. وفي وقت لاحق تزوج مخلوف هذا من ابنة الحاخام وانفصل بعمله الخاص في الخرطوم.

كانت معصرة الزيوت الخاصة بالحاخام هي الأولى من نوعها التي تعمل بمحرك هايدروليكي عهد ذاك حيث كانت المعاصر تصنع من أخشاب الأشجار المحلية وتحركها الجمال. ولايزال هناك في السودان مثل تلك المعاصر البدائية تعمل في بعض المناطق النائية. اما مصنع البلاط، الذي استمر مدة أطول، فقد كان ينتج

البلاط الأبيض والأسود والأحمر والذي كان يجد رواجاً في تلك الأيام. وكان مصنع المكرونة أيضا هو الأول من نوعه أيضا الآن الحاخام قام بتصفية أعماله وموجوداته قبل ستة أشهر من هلاكه بعد ان كتب وصيته المستمدة من قانون الهالاكا اليهودي،

أشار المؤلف الى زيارة الحاخام الياهو حزان بصفته حاخامباشي مصر وكبير حاخامات الاسكندرية للسودان حيث رعى انتخاب المجلس الأول للجالية اليهودية في السودان في مساء الثلاثين من يناير عام ١٩٠٨ بأم درمان. تم ذلك في معبد أم درمان الذي حمل فيما بعد اسم بن - سيون كوشتي. وقد اختير كوشتي هذا أول رئيس للجالية، وأصدر الحاخام حزان وثيقتين - الأولى تسجل زيارته والثانية انتخاب مجلس الجالية. وقد كتبهما بخط يده وضمنهما توقيعه. وفي الوثيقة الأولى وصف اجتماع الجالية القليلة العدد والذي ضم عشرين رجلاً صحبوا معهم أطفالهم .. جاءوا من أم درمان والخرطوم والحلفايا، فاختاروا لعضوية اللجنة غير كوشتي، نسيم شالوم وادوارد كاسترو ومناحيم صالح وماير ابراهيم. وتقرر انعقاد جمعية عمومية للجالية في شهر فبراير من كل عام على ان يتم تقديم اللجنة المنتخبة في خطاب رسمي للحكومة،



الخرطوم خلال العشرينيات

تشييد الكنيس اليهودي بالخرطوم

في غضون سنوات قليلة بعد الفتح نهضت الخرطوم عاصمة فتية حلوة القسمات بمواصفات حديثة وخدمات متطورة، وأضحت مركزاً تجارياً مهماً فراقت في أعين اليهود الذين انتقل معظمهم إليها من أم درمان والخرطوم بحري. كان من بينهم الحاخام سولومون ملكا الذي وجد في عام ١٩١٨ أن فرج شواقد أقام معبداً في بيت استأجره، وذلك للمجموعة اليهودية الصغيرة المتواجدة في الخرطوم. وفي هذا المعبد أخذ الحاخام ملكا يقيم الصلوات للجالية ويتطلع لإقامة معبد واسع وثابت في العاصمة. وعندما تم انتخاب جوزيف فورتي مدير شركة بي - ناتان آند كومباني - المستوردة لأقمشة مانشستر - بأم درمان رئيساً للجالية اليهودية بات أمل ملكا قريباً من التحقق،

وخلال فترة رئاسة فورتي للجالية والتي استغرقت أربع سنوات ونتيجة لمجهوداته استطاع اليهود شراء قطعة أرض واسعة في وسط شارع فكتوريا (القصر حالياً)، الذي كان أجمل شوارع العاصمة في ذلك العهد.. كان واسعاً تحفه الأشجار الباسقة الممتدة من قصر الحاكم العام (الجمهوري حالياً) على النيل الأزرق وحتى محطة السكة الحديد،

تم تشييد معبد واسع وجميل على قطعة الأرض على طراز معابد السفارديم يسع حوالى ٥٠٠ شخص.. وألحق به قسم خاص بالنساء (العزارا) في الطابق الأعلى مواجهاً للهيكل. وطبقاً لتقاليد السفارديم أقيمت منصة متحركة مع مكتب عرضه ثمانية أقدام في وسط المعبد يواجه جماعة المصلين وفي اتجاه الهيكل. وأقيمت منصة أخرى تضم مخطوطات التوراة. وتغطي باب الهيكل ستارة من المخمل الأحمر والأزرق المقصب (باروخيت)، أهداها بعض المصلين للمعبد بعد أن طرزوا عليها أسماء أحبائهم الراحلين.. أما مخطوطات التوراة فقد تم وضعها في اسطوانات خشبية مغطاة بالمخمل من تراث السفارديم تعلوها أجراس فضية للزينة ولتخلق جواً من الرهبة والخشوع عند فتح باب الهيكل. تميز المعبد بكثرة

النوافذ التي انتظمت الجدران تطل على فناء محيط وحديقة لتلطيف الهواء خلال أيام الحر القائظ. كما تم تزويده بعدد من مراوح السقف حيث لم تكن أجهزة تكييف الهواء قد عرفت بعد. ومن الهيكل والمنصة ينهض الحاخام ملكا يحيط به فرج شوا والمنشد ألبرت قبّاي - الذي يمتلك صوتاً جميلاً أخاذا. وكان ينضم إليهم تلميذ الحاخام ديفيد أوهانا ومخلوف ملكا. وكانت الترانيم تؤدي بأنغام السفارديم التي انحدرت من التراث اليهودي القديم المغربي والمصري. وكانت تثير جموع المصلين الذين يرددون الترانيم مع المنشدين بطريقة السفارديم. وكانت المواعظ في المسائل الدينية يقدمها الحاخام ملكا باللغة العربية التي كان يفهمها معظم المصلين. وكانت تنشر أيضاً في صحيفة (الشمس) اليهودية الأسبوعية الوحيدة التي كانت تصدر باللغة العربية في المنطقة. وفي وقت لاحق جمع اليهود هذه المواعظ في كتاب تم نشره بعنوان (المختار في تفسير التوراة) وقام بترجمتها من لغتها العربية الى الإنجليزية بالإضافة الى كتابات الحاخام ملكا الأخرى ابنه أدموند ملكا وتم نشرها في ثلاثة مجلدات بعنوان (تخوم الإيمان اليهودي)،

كان لابد لنا من التعرض لوصف هذا المعبد اليهودي - الذي كان يقع في قلب الخرطوم ولا نعلم ما كان يجري في داخله منذ أن تم إنشاؤه في عام ١٩٢٦ بتكلفة بلغت ثلاثة آلاف جنيه. كان مبلغاً ضخماً بمقاييس تلك الأيام. وقد ساهم بمعظمه يهود السودان من الرجال والنساء، ذلك بالإضافة الى تبرعات جاءتهم من يهود مصر، ومن بينهم أبراهام بتيش الذي تبرع بـ ٢٥٠ جنيهاً، بينما قدم في نفس الوقت مبلغاً مماثلاً لبناء معبد آخر في تل أبيب. وبعض المساهمات وصلتهم أيضاً من يهود المملكة المتحدة من خلال الوكالة اليهودية في لندن،

بلغت الجالية اليهودية في السودان ذروة قوتها وثرائها خلال سنوات الأربعين والخمسين من القرن العشرين وكان معبدهم في الخرطوم يغص بهم على سعته أثناء الاحتفالات وخاصة في الأعياد الكبرى حين تزحف إليه العائلات اليهودية من الخرطوم والخرطوم بحري وأم درمان وود مدني،

وكان يوم كيبور في الخرطوم غالباً ما يكون حاراً ورطباً لأنه يقع في شهر سبتمبر.

واليهود يصومون في ذلك اليوم فيؤمون المعبد منذ الصباح الباكر ويمكثون حتى صلوات ما بعد الظهر.. يحتشدون في الحديقة وفناء المعبد حيث يجدون أماكن مريحة مزودة بالكراسي والأسرة. وكان كبارهم يتجاذبون الحديث بينما يختلط الشباب من الجنسين،، يتعارفون ليجدوا فرصاً في الزواج. وكان ذووهم يشجعونهم على ذلك لأن الحظ ينحصر في داخل هذه المجموعة القليلة من الناس. وفي يوم التكفير (الكفارة) تقام حفلات الرقص وتتفنن الفتيات في محاولة اصطياد العريس الذي دائماً ما تكون مواصفاته الجمال والمستوى العائلي.. وأحياناً تعلن الخطوبات في ذلك اليوم،

وفي أحد أركان المعبد يوضع ما يعرف لديهم بكرسي (النبي أليجا)،، وهو مصنوع من الخشب بارتفاع يبلغ تسعة أقدام وعرض يبلغ خمسة. وعندما يولد الطفل اليهودي يؤخذ الكرسي الى منزله ليتم ختانه عليه في اليوم الثامن من عمره



الكنيس من الداخل

لضمان دخوله في عهد أبراهام حسبما يزعمون. والباحثون والباحثات عن المعجزات يتحلقون حول كرسي الختان، فتجلس المرأة العاقر تحته أملاً في الولادة.

أما الفتاة الراغبة في الزواج فتحمل الطفل الى الكرسي وهي تلبس فستان الزفاف وخماراً أبيض لتتحقق أمنيتها في العثور على زوج. أما الطفل نفسه فلابد من إلباسه ثوباً طويلاً من الحرير الأبيض يغطي حتى سرواله، وعندما يوضع على الكرسي يقوم الحاخام قبل إجراء عملية الختان بالإنشاد بالعبرية مرحباً باسم الله.



العمارة البيضاء قامت على أنقاض المعبد في شارع القصر

وحتى طاولة الياهو هنابي التي تحتوي على معدات الختان يحملها شخص يأمل في تحقق أمنية ما. وبعد أن يقوم الحاخام بعملية الختان ينشدْ فيترنم الحاضرون وراءه ولا ينسى أن يصب قطرة من النبيذ في فم الطفل الذي لا يلبث أن ينام وينسى الألم، وبعد ذلك تقدم التهاني ويوزع الطعام بأشكاله المختلفة.

كان الحاخام عقب خطبة الصلاة يدعو للحكام،، ولما كان السودان في ذلك الوقت تحت الحكم الثنائي كان يدعو للملك جورج الخامس والملك فؤاد بالإضافة للحاكم العام البريطاني الذي كان يحكم السودان. وعندما أصبح سير هربرت صمويل مفوضاً سامياً لفلسطين اغتبط الحاخام وأضاف اسمه الى قائمة الملوك والحكام

الذين كان يدعو لهم. وبعد قيام الكيان الصهيوني بات الحاخام ملكا أكثر اغتباطاً فأضاف الى القائمة حاييم وايزمان ثم بن جوريون،

لم يكن الحاخام ملكا مجرد رجل دين يهودي بل كان صهيونياً حتى النخاع. كان يلقن أبناءه الأناشيد ويحثهم على الترنم بأغنية (الهاتيكفا) أو (الأمل) في العودة الى فلسطين. ويذكر مؤلف كتاب (أطفال يعقوب في بقعة المهدي) ليلة التاسع والعشرين من نوفمبر عام ١٩٤٧ التي أمضاها مع والده الحاخام ملكا في منزله ليستمعا سوياً لنتيجة التصويت على قرار تقسيم فلسطين في الأمم المتحدة. كانت الدموع تتساقط من عيونهما مع كل صوت يتم احتسابه. وعندما تم إحراز ثلثي الأصوات - وهو النصاب المطلوب - قفزا من فرط السعادة والفرح.

هلك الحاخام سلومون ملكا في ابريل عام ١٩٤٩ بعد أن رأى قيام دولة الكيان الصهيوني ودفن في مقبرة اليهود في الخرطوم. وقد شارك في تشييع جثمانه ممثلون عن حكومة السودان ورجال الدين والشخصيات البارزة وفي مقدمتهم السيدان علي الميرغني وعبدالرحمن المهدي وأسقف الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ورئيس الأكليروس البروتيستانت بأم درمان. كما شارك أعضاء الجالية اليهودية وعدد كبير من الناس واستمر مأتمه سبعة أيام،

واجهت الجالية اليهودية في الخرطوم صعوبات جمة في إيجاد حاخام بديل فتوالت جهودهم من أجل استقدام أحدهم من السفارديم من فلسطين المحتلة. وفي البداية تعاقدوا مع الحاخام ماسلياه الذي لم يمكث بالسودان طويلاً فعاد الى تل أبيب قبل أن يكمل العامين. ومن بعده جاءوا بالحاخام حاييم سيموني الذي بقي فترة أقل من سلفه. وأخيراً تعاقدوا مع حاخام شاب يدعى سعود الباز من مصر فظل في خدمة الجالية اليهودية حتى أوائل سنوات السبعين. وفي ذلك الوقت قام نسيم قاوون - من اليهود المولودين بالسودان - بتشييد معبد في جنيف بسويسرا فتعاقد مع الحاخام مسعود الذي ظل في خدمته حتى تقاعد وعاد الى فلسطين المحتلة حيث مات هناك،

في أوائل سنوات الخمسين أعيدت تسمية المعبد اليهودي في الخرطوم وأطلق عليه

(أوهيل شيلومو) وفاء لذكرى الحاخام سولومون ملكا ولتفانيه في خدمة الجالية اليهودية في السودان التي استمرت ٤٥ عاما. ووضعت لوحة رخامية ضخمة على الجدار في يمين الهيكل كتبت عليها عبارة الأهداء للحاخام وزوجته حنا. وفي القدس أيضاً قام يهود السودان بوضع لوحة تذكارية أيضاً للحاخام ملكا في الطابق الثاني بمعبد السفارديم المركزي (ييسابراشا).

بعد سنوات من مغادرة آخر أفواج اليهود للسودان ترامت الى أسماعهم أن مقبرة ذويهم بالخرطوم تتعرض للتخريب فانزعجوا وتحركوا في عام ١٩٧٥.. نسيم قاوون وليون كوهين من جنيف وأفراد عائلة تمام في لندن وجنيف وعائلة اسحاق في لندن والخرطوم واسرائيل ونظموا عملية نقل رفات موتاهم جواً من الخرطوم عبر جنيف، وفي القدس أدوا صلواتهم الخاصة ودفنوا الرفات في موقع خاص بمقبرة (جيفات شاوول) بالقدس وكتبوا على لوحة خاصة (مقبرة جالية يهود السودان).



مقبرة اليهود بالخرطوم

يهود هاربون من النازية
يلجأون إلى الخرطوم

كان للسودان نصيبه أيضاً من اليهود الهاربين من ألمانيا النازية، من بينهم فنانان هما جيمي كين وزوجته ترودي اللذان قاما بتشييد الملهى المعروف بـ(جوردون ميوزيك هول) بالخرطوم والذي كان يؤمه أفراد المجتمع المخملي العاصمي من علية القوم سودانيين وأوروبيين. وقد تنصر الزوجان اليهوديان في وقت لاحق وأصبحا مسيحيين وانضما للكنيسة البريطانية التابعة لكاتدرائية انجلترا في الخرطوم. وكان من أوائل اليهود الألمان الذين لجأوا الى السودان أيضا الزوجان ريتشارد وليزا ويس وابنهما الشاب هيربرت، جاءوا عبر مصر التي رفضت منحهم حق اللجوء. وصلوا الى الخرطوم وهم لايحملون من المتاع شيئاً سوى تميزهم بتعليم جيد وثقافة واسعة. وقد استضافهم الحاخام في غرف صغيرة ملحقة بالمعبد. ولم يلبث ريتشارد ان غيّر من أحواله ليصبح واحداً من أفراد الأوساط التجارية والاجتماعية المرموقة. وارتقى من بيع رقائق البطاطا في دور السينما بالخرطوم ليصبح شريكاً في شركة نيفوتيوس كومباني اليونانية العاملة في مجال التصدير والتوريد. وارتفع من سكن غرف المعبد اليهودي ليستقر في منزل بأحد أرقى الأحياء السكنية في الخرطوم،، حيث نعم هو وأسرته بعلاقات واسعة ومخملية في تلك الأيام. وقد هاجر ريتشارد ويس وعائلته الى الولايات المتحدة خلال سنوات الستين من القرن الماضي إلاّ انه لم ينس ارتباطاته القديمة بيهود السودان حيث استقبل مؤلف الكتاب لدى وصوله الى هناك يصحبه ابنه وابنته ورحب بهم وأغرقهم في فيض من الكرم وروح الصداقة.

وجد المؤلف في ريتشارد ويس وجيمي كين نموذجين متناقضين لليهود الألمان، حيث كان الأول علمانياً ولكنه يحترم الديانة اليهودية ويشعر بالارتباط بها، بينما الآخر رغم استيعابه لها لفظها في أول فرصة سانحة وتحول الى المسيحية. وكان والد ترودي كين قد لجأ أيضا الى السودان هرباً من النازية واعتاد ان يزور المعبد سنوياً

في يوم كيبور ليستمع في صمت للصلوات لمدة ساعتين ومن ثم يعود الى داره. وعندما هلك في الخرطوم اتصل جيمي كين بالمؤلف هاتفياً لعمل اللازم فتم ترتيب جنازة يهودية وتم دفنه في مقبرتهم الخاصة. كان على اليهود الألمان اللاجئين الى السودان في تلك السنوات ان يبلغوا عن وجودهم يومياً بالظهور في مكاتب شرطة الخرطوم.

عندما احتدمت الأزمة الاقتصادية العالمية في أخريات الثلث الأول من القرن العشرين أحس كبار أثرياء الجالية اليهودية بالقلق فآثروا الرحيل الى مصر للاقامة هناك ولكن سرعان ما عادوا الى منازلهم وأعمالهم بالخرطوم. وفي الوقت نفسه وفي خلال سنوات العشرين والثلاثين والأربعين أخذ عدد كبير من اليهود الشبان يفدون من مصر لشغل وظائف حكومية ومصرفية وفي الشركات التجارية، وآخرون جاءوا كباعة في المحال التجارية كما أنشأ بعضهم أعمالاً تجارية.

توجه ديفيد قاوون الى مدينة بورتسودان، ذلك الميناء النابض بالحركة والنشاط وأصبح باشكاتباً للمدينة أو ادارياً يعمل تحت الحاكم البريطاني لمنطقة البحر الأحمر. وكان أباً للبرت وليون ونسيم قاوون الذي أصبح قطباً في مجال الأعمال ومحسناً في أوساط الجالية. وجاء الى الخرطوم ديفيد هورنستين مدير الخط البريدي الخديوي وجوزيف دانون مدير شركة ريمجنتون لآلات الكتابة، واميل فينستين وبيرنارد جولدرينج الموظفين في رئاسة مصلحة البريد والبرق. وجاء الى الخرطوم أيضاً آي.ويس وديفيد هيمو وسيزار بيليلوس واسحاق كوهين وادجار بن روبي. وعمل لفترة قصيرة في بنك مصر بالخرطوم جوزيف ناحوم ابن الحاخام حاييم ناحوم افندي كبير الحاخامين في مصر. واجتذبت مجموعة شركات جلاتلي هانكي المؤسسة البريطانية العملاقة التي تعمل في النقل البحري والتجارة والأعمال الهندسية هنري رومي وموريس ماكروفيتش وجوزيف سوريانو الى مكاتبها الرئيسية بالخرطوم. اما فليكس هاروش وماكس بيرجمان فعملا بمكاتبها ببورتسودان وبوريس جويرتزمان التحق بمكاتبها باريتريا، والتحق جاك كارمونا

بوكالة شركة برودينشيال للتأمين وماتياس ناحمياس امتلك صالة للتزلج بالخرطوم. كما التحق أيضا ماكس جابرييل بفندق البحر الأحمر في بورتسودان والكسندر حاييم مديرا لشركة دباس اخوان.. تجار الأقطان وأصحاب محلج القطن في بورتسودان وإسرائيل كامينسكي مديرا وممثلا في الخرطوم لشركة علي باشا للأقطان في الاسكندرية. اما آر، فيشرمان وفيكتور حايمان ورافائيل حكيم فقد جاءوا ممثلين أيضا لشركات في القاهرة،

وجاء من القاهرة أيضاً موريس جولدينبرج صاحب محل النظارات المعروف بالخرطوم، وروبرت بروتستين مدير شركة بينتو وهنري فارحي مدير شركة امبيريال للكيماويات ومارك ميرزان مدير شركة الغزل وادوارد شريدان مدير شركة شريدان أخوان. وان ميارا جاء ككبير مهندسي شركة الماء والكهرباء وكان مسؤولا عن جميع انشاءاتها في الخرطوم وود مدني. وجاء سيزار ليفي كمدير لشركة بي، ناتان أخوان بأم درمان. ووفد أيضاً البرت قباي الذي أصبح أميناً لصندوق الجالية وشماساً في المعبد. وبسبب صوته الجميل أصبح منشداً متطوعاً. وديفيد أوهانا الذي خدم الجالية أيضا. وقد امتلك قبّاي وروفين كوهين متاجراً في الخرطوم كما فعل أبرامينو كونين في الشجرة،

معظم هؤلاء اليهود الشباب الذين جاءوا من مصر تزوجوا من فتيات يهوديات مولودات في السودان وكونوا عائلات وأصبحوا مقيمين دائمين في البلاد وعززوا من مكانة الجالية اليهودية. آي. سيجال جاء من فلسطين وأصبح لمدة قصيرة كبير مسؤولي الجوازات وهي وظيفة حساسة ليشغلها يهودي وصهيوني في بلد عربي مسلم. ولكن كان ذلك قبل قيام الكيان الصهيوني في عام ١٩٤٨. وجاء من فلسطين أيضاً أبراهام بينين الذي أنشأ شركة كيستون وأقام أول مصنع لصناعة الزراير من خشب ثمار الدوم (وهو شجر ينمو بكثرة في السودان)،

وجاء جي. وولف مفتشاً للمالية في حكومة السودان وكان هو اليهودي الوحيد الذي قدم من بريطانيا عبر القاهرة التي التقى وتزوج فيها من شابة جميلة من الاشكنازي. وسكن بجوار المؤلف في الخرطوم وانضم لفترة طويلة لجماعة المعبد.

وقد ودعته الجالية اليهودية بالخرطوم بحرارة عندما تقاعد من خدمة حكومة السودان في نهاية عام ١٩٤٥ والتقطت صورة بهذه المناسبة ظهر فيها عدد من أفراد الجيل القديم للجالية مع الحاخام ملكا.


حفل وداع وولف

كان الحاخام سولومون ملكا يمثل الجالية اليهودية أمام حكومة السودان ومؤسساتها الرسمية باعتباره زعيمها الروحي، ذلك الى جانب رئيس الجالية. وكانت توجه اليهما كل الدعوات الرسمية ولحضور المآدب التي يقيمها الحاكم العام في حدائق قصره. وكان الحاكم العام يدعى السردار -اسم رتبة قائد الجيش المصري في السودان حتى عام ١٩٢٤ حين تم فصل الوظيفتين. وكانت مثل تلك الدعوات توجه الى رؤساء وممثلي الجاليات الأجنبية وزوجاتهم اللائي كن يتطلعن لمثل هذه الحفلات. ويذكر المؤلف من نسائهم جانيت كوهين ودورا ملكا زوجته وأورو اسحاق يذهبن في آخر موضة للأزياء الراقية كأنهن يمثلن الجالية اليهودية بكل مالديها من ألق في مجتمع ذلك الوقت.

ويذكر المؤلف مرة أنه حضر احدى تلك المآدب مع والده الحاخام وهو اما رئيس أو مدير وممثل لشركة جلاتلي هانكي. وقف والده وسط مجموعة من رجال الدين والأعيان ووقف هو قريباً منه بانتظار مضيفهم الحاكم العام الذي ظهر في كامل زيه ينزل من السلالم التي شهدت مقتل غردون على أيدي أنصار المهدي صبيحة يوم تحرير الخرطوم. وعندما وصل الى الضيوف تبادل معهم كلمات قليلة وجلس في المقعد المخصص له. كان ضيوف القصر يدخلون اليه من البوابة الجنوبية التي تواجه الميدان الذي ينتصب فيه تمثال الجنرال غردون.

روى المؤلف حادثة وقعت في يوليو ١٩٤٥ حين اتصل به هاتفياً مفتش مركز

الخرطوم الانجليزي مستر آر، بير ليبلغه بصفته سكرتيراً للجالية اليهودية وعضواً بمجلس الامدادات بالخرطوم مصرع طيارين يهوديين بالقرب من الخرطوم. وأوضح له ان قائد سلاح الجو الملكي بالخرطوم نقل له خبر تحطم الطائرة وطلب منه العمل على ترتيب عملية دفنهما في مقبرة اليهود بالخرطوم، وأمر بتزويده بكمية من البترول لسيارته ليتمكن من انجاز المهمة حيث كان الوقود يوزع وفقاً لحصص التموين بسبب ظروف الحرب. وذكر المؤلف ان دفن الشابين الشقيقين تم بصورة رسمية شارك فيها حرس الشرف. وبعد مضي عام جاءت والدتهما مسز ماجد من جنوب أفريقيا حيث تعيش وزارت قبريهما،

رؤساء الجالية اليهودية
خــلال ســبعة عقــود

أورد مؤلف الكتاب أسماء رؤساء الجالية اليهودية الذين تعاقبوا لفترة امتدت أكثر من سبعين عاما، وقد تصدر الجيل الأول من هؤلاء بن - سيون كوشتي - الذي عرف باسم بسيوني حين أسلم في أيام الدولة المهدية، وقد كان يهودياً تركياً أحمر اللحية، مهيب الطلعة، قوي الشخصية، كان يتصل بديوان الخليفة بأم درمان في الأمور التي تتعلق بشؤون تلك الجالية التي ارتدت عن الإسلام بزعامته بعد سقوط الدولة المهدية. وانتخبته تلك الجالية بعد ذلك رئيساً مدى الحياة في الفترة التي امتدت من ١٩٠٨ حتى موته عام ١٩١٧،

خلف كوشتي رافائيل عدس، الذي كان شريكاً ومديراً لشركة پبي، ناثان اخوان اليهودية المعروفة بأم درمان المستوردة لمنسوجات مصانع مانشستر والمواد الأخرى المتصلة بالملبوسات الرجالية والنسائية لمبيعات الإجمالي والمفرق في جميع أنحاء السودان،

وقد استمرت فترة رئاسة رافائيل عدس للجالية اليهودية ثلاث سنوات من ١٩١٧ الى ١٩٢٠،

اختارت الجالية اليهودية جوزيف فورتي الذي كان أيضاً مديراً في شركة ((بي. ناثان اخوان)) بأم درمان رئيسا. وقد شهدت فترة رئاسته تطوراً ملحوظاً في نشاط الجالية حيث تم إنشاء الكنيس اليهودي في شارع فيكتوريا بوسط الخرطوم وتم افتتاحه في عام ١٩٢٦. واستطاع فورتي بمثابرته ووضعه الاجتماعي الخاص وعلاقاته أن يوفر الدعم المالي بالإضافة الى المساهمات المالية التي تلقاها من القاهرة ولندن والخرطوم. واستمرت فترة رئاسته من ١٩٢١ وحتى ١٩٢٦. وتسلم رئاسة الجالية بعده شقيقه ألبرت فورتي، الذي كان مديراً أيضاً في شركة ((بي، ناثان اخوان))، وقد واصل الأعمال التي شرع فيها اخوه في خدمة الكنيس والجالية. واستمرت فترة رئاسته ثلاث سنوات من ١٩٢٧ حتى ١٩٣٠.



أما ابراهيم سيروسي أحد كبار مصدري الجلود فقد امتدت رئاسته من عام ١٩٣١ حتى ١٩٣٦، وهي الفترة التي شهدت فيها الجالية ازدهاراً ملحوظاً وأخذ الكنيس يغص بالمصلين وتم تأسيس محفل ((بناي - بريث)) في السودان.



كان ابراهام دويك أحد أبرز أعضاء الجالية اليهودية الأوئل وأحد تجار الأقمشة المعروفين في أم درمان والخرطوم، وقد شغل منصب رئيس الجالية في الفترة ما بين ١٩٣٦ و ١٩٣٩. وكان نموذجاً لليهودي التقليدي المتزمت، إلا أن أبواب داره كانت مفتوحة لليهود الجدد القادمين لأول مرة الى السودان.



أما إيلي تمام، مؤسس عائلة تمام والتاجر المعروف بأم درمان أصبح رئيساً للجالية في الفترة ما بين ١٩٣٩ و ١٩٤١، وكان حريصاً على حفظ وحماية مؤسسات الجالية اليهودية.



تسلم موسى اسرائيل العيني رئاسة تلك الجالية في سنوات الأربعين، وكان تاجراً مشهوراً وممولاً في الخرطوم بحري التي افتتح فيها أبوه أول متجر بعيد الفتح مباشرة. وينحدر من أصل عراقي حيث جاء مع والديه الى السودان من القاهرة وهو في الرابعة من عمره. وكان أحد اليهود الأوائل الذين تخرجوا في كلية غردون التذكارية بالخرطوم.

أعرب المؤلف عن سعادة غامرة واحساس بالفخر حيث شغل منصب سكرتير فخري لفترة امتدت منذ رئاسة إبراهيم سيروسي وعاصر معظم الذين جاءوا من بعده. ووجد الفرصة سانحة، بمساندة والده الحاخام، ليوفر جزءاً من وقته لتنظيم

شؤون الجالية والاهتمام بأمور أفرادها،

وفي سنوات الأربعين كان الجيل من أبناء اليهود الذين ولدوا بالسودان قد بلغوا أشدهم وأحسوا بضرورة أن يتولوا شؤون الجالية التي أفسحت لهم الطريق ورحبت بحماسهم، ومنذ ذلك الحين أصبح يتم انتخاب رؤساء الجالية من بين ذلك الجيل. كان أول من تولى منصب رئيس الجالية من ذلك الجيل هو جوزيف تمام - ابن إيلي تمام - وامتدت فترة رئاسته، بين ١٩٤٥ - ١٩٤٧، وكان في ذلك الوقت مديراً لفرع شركة ((جوليا بادوفا اخوان)) بأم درمان ومقر رئاستها بالقاهرة.

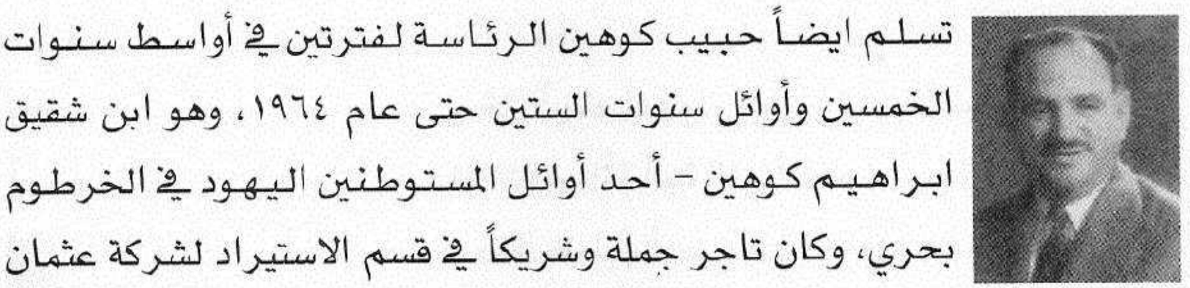


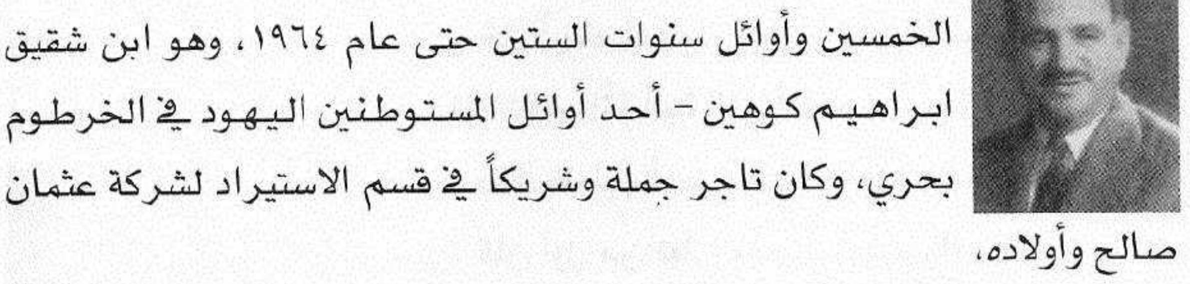


أما نسيم قاوون - ابن ديفيد قاوون الذي كان يقيم ببورتسودان فقد شغل منصب نائب رئيس الجالية وأمين الخزينة في الفترة ما بين ١٩٤٧ و ١٩٥٧، ونسيم قاوون الآن رجل أعمال معروف على النطاق العالمي. يقيم في جنيف ويعتبره اليهود أحد كبار المحسنين.. ويشغل منصب رئيس اتحاد السفارديم الدولي.. وكان شريكاً في شركة الاستيراد الكبرى لصاحبيها ألبرت ونسيم قاوون في الخرطوم.



شغل الياهو ملكا - مؤلف الكتاب - منصب رئاسة الجالية لفترتين، الأولى ما بين ١٩٤٨ و ١٩٥٠ و ١٩٥٤ - ١٩٥٥، وكان يعمل وقتذاك مديراً تنفيذياً في شركة جلاتلي التجارية، وهي جزء من مجموعة شركات جلاتلي هانكي- إحدى أكبر الشركات العالمية التي كانت تعمل بالسودان. وفي المرتين كان يستجيب لضغوط الجالية لقبول الرئاسة بعد سنوات طويلة أنفقها في منصبي سكرتير الشرف ونائب الرئيس. وقال انه كان يستجيب لانتهاز الفرصة لتنظيم شؤون الجالية وفقاً للأساليب الحديثة.





تسلم ايضاً حبيب كوهين الرئاسة لفترتين في أواسط سنوات الخمسين وأوائل سنوات الستين حتى عام ١٩٦٤، وهو ابن شقيق ابراهيم كوهين – أحد أوائل المستوطنين اليهود في الخرطوم بحري، وكان تاجر جملة وشريكاً في قسم الاستيراد لشركة عثمان صالح وأولاده،



تولى رئاسة الجالية ايضاً داوود اسحاق الذي ولد بالسودان ووالده كان أحد أوائل المستوطنين اليهود بالخرطوم، وامتدت فترة رئاسته ما بين ١٩٥٦ و ١٩٥٩، وكان قد أنشأ وقتذاك امبراطورية تجارية وصناعية شملت عمليات الاستيراد والتصدير لمختلف أنواع السلع، كما امتلك مصنعاً للعطور ومصانع أخرى،

خلال تلك الفترة التي تسلم فيها الجيل الثاني من ابناء اليهود الذين ولدوا بالسودان رئاسة الجالية بلغت قمة ازدهارها، بتأسيس النادي الذي بات مركزاً لحياة اليهود بالعاصمة ومحفل ((بناي – بريت)) الذي كان لتبرعات اعضائه السخية أثر واضح في الحفاظ على الكنيس وبقية المؤسسات اليهودية الأخرى في أفضل الاحوال.



كان اسحاق موسى اسرائيل العيني – المولود بالسودان – هو آخر رؤساء الجالية اليهودية، فقد تم انتخابه في عام ١٩٦٥ في الوقت الذي غادر فيه معظم افراد الجالية السودان. وظل يشغل المنصب حتى عام ١٩٧٠ حين غادر السودان الى انجلترا. وقد كان رجل أعمال معروفاً في الخرطوم وأنحاء السودان الاخرى . وكان قد تخرج في كلية كمبوني بالخرطوم والجامعة الاميركية بالقاهرة، وكان رياضياً ويكتب الشعر باللغة العربية،

كان هناك أفراد آخرون في الجالية اليهودية شغلوا مناصب اخرى في مجلسها ولجانها أمثال ديفيد بسيوني – ابن بن – سيون كوشتي – الذي تولى منصب سكرتير شرفي والبرت قبّاي، أمين الخزينة بالاضافة الى وظائف دينية داخل

المعبد، واسحاق كوهين أمين الخزينة. وادوارد دويك سكرتير شرفي، وهنري فرحي، نائب رئيس، وادجار بن - روبي سكرتير شرفي وموريس جولدنبرج، نائب رئيس، وابراهيم العيني، رئيس لجنة المقبرة اليهودية، وسيون شوا أمين خزينة.
ويقول المؤلف انه بعد انتهاء فترة خدمته للجالية منذ عام ١٩٣٤ كسكرتير ثم نائب رئيس تم اختياره عضواً دائماً لمجلسها التنفيذي، وظل يعمل بنشاط في ذلك المجلس ويشارك في صنع القرارات حتى مبارحته السودان في ابريل ١٩٦٤، بحثاً عن علاج زوجته دورا جولدنبرج، في لندن ثم جنيف التي ماتت فيها بعد معاناة من السرطان في يناير ١٩٦٦،
أعرب المؤلف عن رضائه التام بما قدمه للجالية اليهودية طيلة ثلاثين عاماً ومشاركته في افراحها واحزانها والتحديات التي واجهتها والنجاحات التي أحرزتها، وتحدث عن التقدم الذي حققه يهود السودان طيلة سنوات الاربعين والخمسين في أعمالهم التجارية والوظائف التي تسنموها، كما أشار ايضاً الى الصداقات التي كونوها في أوساط السودانيين والجاليات الاجنبية الاخرى.
وأعرب عن اعتقاد جازم بأنهم خدموا السودان وشاركوا في تقدمه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وفي رفاهيته، وعبر عن اعجابه بمستوى النجاح الذي حققوه منطلقين - في معظم الأحيان - من بدايات متواضعة. وقدم المؤلف بعض النماذج لذلك النجاح، فأشار الى الدكتور سليمان بسيوني (ابن بن - سيون كوشتي) الذي غدا كبير الجراحين في مستشفى الخرطوم وأستاذاً في كلية الطب بجامعة الخرطوم، وسليمان شاوول الذي اصبح مهندساً كبيراً في مصلحة المساحة السودانية في الخرطوم وود مدني ونفذ عدداً من مشروعات التنمية في المنطقتين،

ربما يكون المؤلف قد جنح للمبالغة في الوصفين اللذين نسبهما لدكتور بسيوني وشاوول . فالأول كان حكيمباشياً لمستشفى الخرطوم والثاني كان مساحاً عادياً في مصلحة المساحة.

دخلوا.... وأخذوا.... وخرجوا....

وجدت مجموعة اليهود التي هاجرت إلى السودان منذ نهايات القرن التاسع عشر ملاذا آمناً وقوماً كرماء مضيافين خالين من التعصب العرقي والديني.. فأفسحوا لهم مجالاً أتاح لهم فرصاً استغلوها لأقصى الحدود. جاء اليهود فقراء معدمين، إلاّ أنهم يمتلكون الخبرات والتجارب في مجالات التجارة التي اكتسبوها في مصر وبلدان أخرى فسيطروا على نصيب كبير من عمليات التصدير والتوريد.. وأقاموا علاقات تجارية واسعة في الكثير من الأسواق العالمية.. كانوا متعلمين يجيدون لغات أجنبية. ماكان السودانيون يطمحون إلى الآفاق الرحبة في التجارة في ظل ادارة بريطانية كانوا يتحاشونها ويتفادون التعامل معها، وقد خرجوا لتوهم من نظام الخليفة عبد الله الذي أغلق السودان في وجه التجارة الخارجية. وعندما تعلم أبناؤهم كانت الوظيفة منتهى الأمل ومعقد الرجاء،

صنعت العائلات اليهودية التي أقامت بالسودان ـ لأكثر من ستين عاما ـ ثروات ضخمة وعندما أحست بأن الأرض أخذت تميد تحت أقدامها تسللت فوجاً إثر فوج إلى مهاجر جديدة (دياسبورا). حملت معها أموالها وأسماءها وارتباطاتها الخارجية فأحرزت نجاحاً في جميع العواصم العالمية التي حلت بها. وقد وافانا بأطراف من هذا النجاح الياهو ملكاً الذي ما فتىء يتابع أخبارها في غبطة وإعجاب.

((أولاد مراد)) كان هو الاسم التجاري لشركات صالح وسليمان وابراهيم وزكي وجاك العيني ـ أبناء مراد اسرائيل العيني ـ أحد اليهود الأوائل الذين وفدوا إلى السودان في عام ١٨٩٨. وأصبحت مجموعة شركات ((أولاد مراد)) إحدى أهم الوكالات التجارية وبيوتات الاستيراد في السودان التي تعمل في توريد السلع من الشاي والسيارات حتى الخيوط القطنية والصوفية. وعملوا في التصنيع من العطور ومستحضرات التجميل حتى المسامير وأواني الألمنيوم. أما داود اسحاق وأولاده فقد أنشأوا شركة في الخرطوم للاستيراد ومبيعات الجملة وأقاموا مصانع للعطور.

وعرف حبيب كوهين كأحد أبرز المستوردين وتجار الجملة.. وكان شريكاً في شركة عثمان صالح للاستيراد. وأنشأ الأخوان البرت ونسيم قاوون شركة لتصدير الحبوب الزيتية والأمباز ومنتجات سودانية أخرى. واستطاعا تطويرها كإحدى أهم شركات التصدير في السودان. كما نجحا أيضا في إنشاء فرع للشركة في جنيف حيث أسسا شركة ((أوليجين)) العالمية.. وأصبحت لديهما مجموعة شركات معروفة عالميا باسم نوجاً تعمل في التجارة العالمية والمجالات المالية والانشاءات والعقارات والفنادق.كان ليون تمام وأخواه البرت وجابرييل قد أنشأوا في السودان شركات لتصدير جلود الطرائد والتماسيح والثعابين وأقاموا معامل للدباغة. وفي أوقات لاحقة أنشأ ليون تمام أكبر مصنع للأدوية في السودان. ومن مكاتبه الرئيسية في لندن أسس شركة (إنترناشيونال جينيرك) المحدودة ثم مجموعات شركات تجارية في المملكة المتحدة واسرائيل وهونج كونج. أما أخواه البرت وجابرييل فقد أسسا شركاتهما المنفصلة في مجالات التجارة والعقارات في جنيف.

أصبح الأخوان سيروسي- فيكتور وشالوم وموريس - أشهر الدباغين والمصدرين للجلود في السودان. وقد واصلوا نشاطهم في هذا المجال بعد مغادرتهم البلاد من بعدهم أبناؤهم وأحفادهم - في نيجيريا والولايات المتحدة وفي أسواق الجلود العالمية الأخرى . أما أبناء عمهم أصلان سيروسي- إدوارد وإيلي وجوزيف والبرت فقد حققوا نجاحاً كبيراً في أعمالهم بالسودان والتي نقلوها إلى مهاجرهم الجديدة.. خاصة ادواردالذي استطاع بناء قوة اقتصادية كبرى في بلدان افريقية أخرى أنشأ فيها شركات عالمية ومصانع ضخمة خاصة في مدغشقر حيث توسع في صناعة النسيج. ونقل نشاطه أيضاً إلى أوربا وخاصة المانيا حيث أقام مكاتبه الرئيسية في هامبورج وظل يحتفظ بمنزل له في اسرائيل حيث تقيم عائلته وأصدقاؤه يتردد عليه من وقت لآخر.

كانت عائلة عبودي يعقوب والياهو وابراهيم يمتلكون متاجراً بأم درمان ويعملون كمستوردين صغار. وعندما غادرو السودان استطاعوا التوسع في أعمالهم التجارية

فأقام يعقوب بالولايات المتحدة والياهو بلندن وهونج كونج وابراهيم في اسرائيل. لاحظ مؤلف كتاب «يهود السودان» ان أفراد تلك الجالية احرزوا نجاحات تفاوتت في درجاتها إلا ان أحدا منهم لم يسقط في براثن الفقر والفاقة.

تحدث الياهو ملكا عن نشاطه في السودان، الذي ولد فيه في أوائل القرن العشرين، وقال انه كان عضواً بمجلس إدارة شركة جلاتلي هانكي كأول يهودي وغير بريطاني يشغل مثل هذا المنصب. ثم أصبح مديراً تنفيذياً وكبير الموظفين التنفيذيين بالشركة التي ساهم في تطويرها منذ بداية إنشائها. وهي التي اصبحت رائدة في مجالات التصدير والاستيراد في السودان. وأصبح الياهو ملكا مديرا للتسويق لمجموعة الشركات الصناعية التابعة لجلاتلي مثل مصنع الصابون وشركة أسمنت بورتلاند. وبات مستشاراً تجارياً لشركات جلاتيلي في مصر واريتيريا واثيوبيا. وعمل الياهو ممثلا في مجلس إدارة غرفة التجارة السودانية وترأس عدداً من لجانها. وفي خلال الحرب العالمية الثانية عمل في مجلس إدارة الامداد الحربي لحكومة السودان وقوات الاحتياط. وأصبح أخوه ادموند ملكا محامياً وأحد أبرز القانونيين في محاكم السودان وألف كتاب «شرح القانون الانجليزي» الذي بات مرجعاً مهماً في دوائر القانون بالسودان. وبعد مغادرته البلاد مارس القانون في اسرائيل وايرلندا والولايات المتحدة حيث أصبح مساعداً للنائب العام في ولاية نيوجيرسي. وقد ألف عددا من الكتب باللغة الانجليزية، من بينهما ((يهود السفارديم.. رحلة اليهودية البرتغالية والاسبانية والشرقية بين الصليب الأحمر والهلال)). كما ترجم إلى الإنجليزية مؤلفاً لوالده بعنوان «تخوم الايمان اليهودي». للمؤلف أخوان آخران هما صموئيل وديفيد سولومون ملكا اتجها نحو الأعمال والتجارة. أصبح صموئيل مديرا لقسم الاستيراد بشركة بيطار، وديفيد مديرا لشركة مواد البناء بالخرطوم. وعندما انتقل إلى الولايات المتحدة أصبح ديفيد نائب رئيس مؤسسة بورنيو سومطره للتجارة في مواد البناء، وهي شركة هولندية عالمية. وفي وقت لاحق أصبح رئيساً لها بالولايات المتحدة لمدة عشر سنوات. وفي سن التقاعد اشترى الشركة وغيّر اسمها إلى الشركة التجارية

لامدادات البناء وعقد شراكة مع أخرى وأصبح رئيساً للشركة الجديدة. وقال المؤلف إن أخاه ديفيد كان شديد الحفاوة بيهود السودان القادمين حديثاً للولايات المتحدة، وكان من بينهم أفراد عائلاتهم دانون وعدس وملكا. ذلك فضلاً عن السودانيين من غير اليهود أمثال سركيس كالباكيان، ويوجين مازوكي وجوزيف ميناس وجورج كوا. وكان يسعى كثيراً لايجاد وظائف لهم في شركاته المتعددة، وكان جم النشاط في محفلي «بناي - بريث» و«كلفتون كونزيرفاتيف» في نيوجيرسي.

أما ماير ملكا ابن شقيقة المؤلف إيستر فقد انخرط أيضا في مجال الأعمال وأصبح مديراً لقسم الاستيراد بشركة «راي ايفانز أخوان» بالخرطوم وهي شركة أقطان عالمية معروفة. وكان رئيس هذه الشركة شخصاً يدعى الكسندر بن لاسين وهو يهودي بارز من الاسكندرية كان لديه ارتباطات بالسودان لسنوات عديدة أنشأ خلالها عدداً من الشركات الصناعية، من بينها شركة النيل الأزرق للتعبئة والتغليف. وكان يديرها يهودي آخر يدعى بن عزرا. وقال المؤلف ان بن لاسين كان صديقاً له لفترة طويلة من الزمن. وأنه كان يعلم أنه كان مسؤولاص عن تجنيد عدد من اليهود الشبان الذين وفدوا إلى السودان، (لكن المؤلف لم يفصح عن المهمة التي كان بن لاسين يوظف أو يجند من أجلها هؤلاء الشباب).

بعد مغادرته السودان إلى الولايات المحدة استأنف ماير ملكا نشاطه التجاري بانشاء شركة نسيج حققت نجاحاً باهراً ومازال يديرها ابنه جاك. وظل ماير ملكا يهودياً متحمساً متزمتاً مثلما كان أبوه مخلوف الذي بدأ نشاطه التجاري في بلدة الحصاحيصا.

النادي اليهودي بالخرطوم

بلغ عدد أفراد الجالية اليهودية في السودان ما بين الثمانمائة والألف موزعين ما بين الخرطوم والخرطوم بحري وأم درمان وود مدني وبورتسودان ومروي التي أقام فيها شاوول الياهو وزوجته، بينما بقي ابناؤه بالخرطوم والخرطوم بحري.

كان ٩٠ بالمئة من أفراد الجالية من السفارديم- ينحدرون من سلالات اليهود الذين طردوا من إسبانيا عام ١٤٩٢ عقب سقوط غرناطة ووجدوا ملاجئ آمنة في دول المغرب وتونس والجزائر بالإضافة إلى مصر. واتجه آخرون الى فرنسا وايطاليا واليونان وتركيا. أما يهود الاشكناز (الألمان) فلم يجدوا بداً سوى الاندماج في اغلبية السفارديم والأخذ بعاداتهم وأساليب عبادتهم وجرت زيجات بين الجانبين في الخرطوم والقاهرة.

وعلى الرغم من أن الكثيرين من يهود السودان انحدروا إليه من عائلات أقامت عقوداً من السنين في مصر، إلا أنهم لم يكونوا يحملون من الأسماء ما يشير الى أصولهم اليهودية، فكانت هناك عائلات عرفت بإسم المغربي والتونسي. أما الذين عرفوا بإسم الاسبانيولي فهم هؤلاء الذين انحدروا من سالونيكا، وجزيرة رودس، وكورفو في اليونان ومن أزمير واسطنبول في تركيا. وكان بعضهم لايزال يتحدث الاسبانية ويحتفظون بتلك اللغة رغم مرور حوالي أربعة قرون على خروجهم من اسبانيا. أما اليهود الاوروبيون فهم هؤلاء الذين وفدوا من ايطاليا وفرنسا والجزائر ويتكلمون الفرنسية. أما البغدادي فتعود أصوله الى العراق. وغالبية اليهود المصريين تأثروا باللهجة المصرية وعادات مجتمعهم الذي ولدوا وعاشوا فيه ماعدا الشريحة العليا التي عاشت حياة اوروبية. وعائلة الحلبي تعود بأصولها الى مدينة حلب السورية. أما الأشكنازي فهم من دول أوروبا الشرقية.

كان الجميع يتحدثون العربية، لغة الناس في السودان ومصر والكثيرون منهم كانوا يكتبونها. ومعظم يهود السودان كانوا يتحدثون اللغة الانجليزية بطلاقة، حيث كانت هي اللغة الثانية لدى الإدارة ولغة التعليم العالي والتجارة الدولية في

الامريكيين. وفي مارس ١٩٥٥ تم انتخاب ليفي رئيساً لمؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الامريكية الرئيسية. وهو أول يهودي من السفارديم يتم انتخابه في مثل تلك الظروف لقيادة هذه المجموعة اليهودية ذات النفوذ السياسي القوي في الولايات المتحدة.

ويعود ملكا ليتحدث عن تاريخ اليهود في اسبانيا مُذكراً بأن الملك فرديناند والملكة ايزابيلا أصدرا في يوم ٣١ مارس ١٤٩٢ أمراً ملكياً بطرد ٣٠٠ ألف يهودي من اسبانيا على أن يغادروا البلاد في خلال أربعة أشهر. واعتبر أن البحث والتدقيق والمجهودات الدؤوبة التي قام بها العالِم البحاثة توماس دي توركيمادا- ذو الأصل اليهودي- أثمرت عن إلغاء ذلك الأمر- الذي صدر منذ ذلك الزمن البعيد- في ديسمبر ١٩٦٨ من جانب الحكومة الاسبانية، ذلك بالإضافة الى مجهودات زعيمي الجالية اليهودية الدون ابراهام سنيور والدون اسحاق أبرابانيل، التي أثمرت أيضاً عن الاعتراف الرسمي بالطائفة اليهودية بمدريد- والتي يبلغ عدد افرادها ٦٠٠ شخص- وبمعبدها (بيث جاكوب). وفي عام ١٩٧٠ زار ملكا ذلك الكنيس اليهودي والتقى ببعض القائمين عليه. وتطرق الى لحظة تفجر العواطف حين أبلغهم بأمر عائلته التي طُردت من اسبانيا في عام ١٤٩٢، فأبحرت بها السفينة من ميناء ملقه الى ميناء طنجة المغربي.

وفي مايو عام ١٩٧٨ بعد عشر سنوات من الاعتراف بكنيس مدريد، أعلنت الحكومة الاسبانية الجديدة حرية العقيدة والدِّين والعبادة للأفراد والمجموعات. وبحلول عام ١٩٩٢ كانت الجالية اليهودية في مدريد وبرشلونة قد قفز عدد أفرادها الى ٢٠٠ ألف، معظمهم قدموا اليها من شمال افريقيا وأوروبا.

ومن بين المشروعات العديدة التي اضطلع بإنجازها نسيم قاوون واتحاد السفارديم برئاسته، كان المشروع التعليمي، الذي قدم من خلاله المنح الدراسية للآلاف من الطلاب اليهود السفارديم في الجامعات الاسرائيلية والمعاهد المهنية.

وكان مشروع تجديد البرنامج التعليمي عملاً ضخماً قامت به حكومة تل أبيب بمشاركة يهود الشتات. وذلك لإعادة تأهيل بعض المناطق الريفية والحضرية.

وأكثر من تسعين بالمائة من سكان تلك المناطق من اليهود السفارديم المهاجرين من الدول العربية الذين تم تصنيفهم كيهود شرقيين يختلفون عن أضرابهم السفارديم القادمين من الدول الأوروبية. وكان قد تم توطينهم فيها من قبل الأشكناز بعد أن فروا من الدول العربية عقب الاضطرابات التي حدثت إثر إعلان قيام دولة اسرائيل في عام ١٩٤٨ وبعد العدوان الثلاثي- الذي شاركت فيه اسرائيل ضد مصر- في عام ١٩٥٦.

قامت الجاليات اليهودية في الولايات المتحدة بالتوأمة مع تلك المناطق، وبذلت جهوداً جبارة في سبيل تنميتها وتطويرها. وفي خلال ذلك أصبح عدد من زعماء اليهود المتنفذين في الولايات المتحدة على صلة وثيقة، ليس مع السفارديم فحسب، وانما مع اليهود الذين هم في أدنى درجات السلّم الاجتماعي والاقتصادي.

وفر البرنامج التعليمي- الذي تموّله الوكالة اليهودية- منحاً دراسية لزعماء شباب من المدن النامية الذين يرغبون في مواصلة دراساتهم بمختلف الجامعات في اسرائيل. وقد استفاد من هذا البرنامج حتى الآن سبعة آلاف طالب، من بينهم خمسة آلاف من السفارديم تم تخرجهم خلال فترة عشر سنوات.

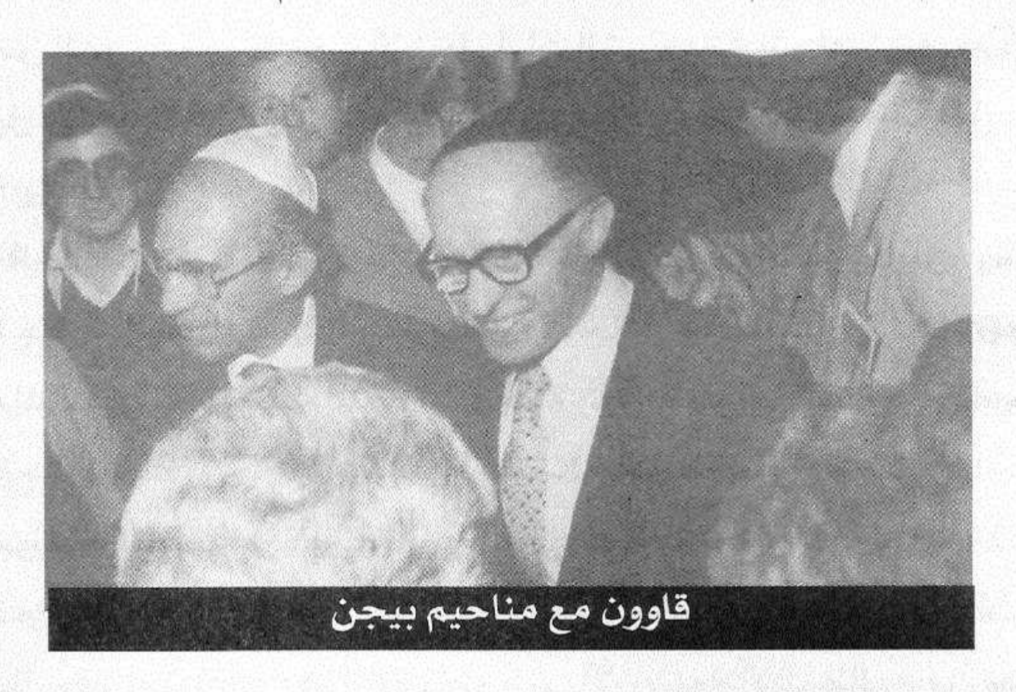
وتم اختيار نسيم قاوون رئيساً لمجلس أمناء جامعة بن جوريون في النقب- حيث تبلغ نسبة الطلاب السفارديم فيها ٣٠ بالمائة- وهي أعلى نسبة للسفارديم في أي جامعة اسرائيلية أخرى. والكثير من هؤلاء الطلاب استفادوا من المنح الدراسية التي قدمها اليهم نسيم قاوون.

وقد عمل قاوون أيضاً كأحد أمناء الجامعة اليهودية في القدس، وجامعة بارعيلان، وكنائب رئيس المؤتمر اليهودي العالمي. وترأس قاوون عمليات تمويل نشاط (كيرين حيسود) و (كيرين كيميت) وروابط اليهود في جنيف وسويسرا، المتحدثة بالفرنسية (لاسوس روماند).

وفي جنيف، استطاع قاوون توحيد جاليات الأشكناز والسفارديم تحت رئاسته وشيّد كنيس (هيكل حانيس) الجميل والمركز الثقافي واستمر في دعم نشاطه.

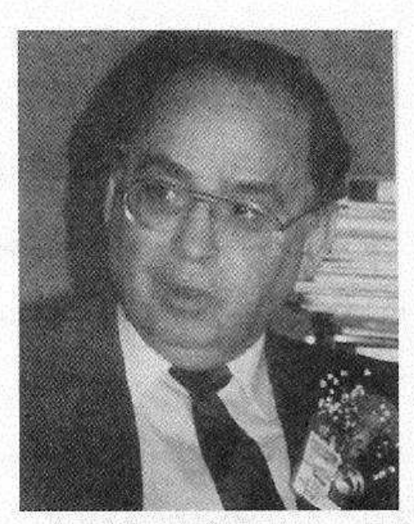
وظل قاوون شخصية نشطة في المشهد السياسي الاسرائيلي.. فقد كان حاضراً في

اجتماع الرئيس المصري أنور السادات مع مناحيم بيجن. وكثيراً ما يعرب عن استعداده لبذل كل ما بوسعه في سبيل خدمة قضية السلام مع العرب، وأن السفارديم سيكون لهم دور فاعل في تطوير الحوار معهم.



قاوون مع مناحيم بيجن

ليـــون تمّـــام



من بين رجال الأعمال البارزين الذين تعرض لذكرهم ملكا والذين لعبوا دوراً مهماً من أجل اليهود في العالم، ليون تمّام المقيم في لندن. وكان تمّام قد غادر السودان في أوائل الستينات حيث أنشأ في اطار نشاطه التجاري أول مصنع للأدوية في السودان. وفي مهجره الجديد استطاع تنمية ثروته التي تعاظمت في مجال الأعمال التجارية وسوق العقار. لم يشغله ذلك عن النشاط داخل الحركة الصهيونية، فأنشأ اتحاد السفارديم في بريطانيا والكومنولث وأصبح رئيساً له. أما صهره ايدي اسحاق- وهو

من يهود السودان أيضاً- فقد أصبح النائب الأول للرئيس في هذا الاتحاد.
وفي اسرائيل من مكاتبه الرئيسية التي يمتلكها بفندق دانيال في هرتزليا، ظل تمّام يراقب أعماله الخيرية والسياسية، حيث قام بتأسيس حركة (تعالي) الدولية من أجل اسرائيل. وكممثل لليهود الأمريكيين، حضر المؤلف الياهو ملكا أحد الاجتماعات التي عقدتها تلك الحركة في أيامها الباكرة في يوليو عام ١٩٨٧ بفندق هرتزليا، حيث تم انتخاب ليون تمّام رئيساً دولياً، وديفيد سيلفيرا مديراً عاماً باسرائيل، والقانوني سيدني شيبتون مديراً تنفيذياً بالعاصمة البريطانية.
وكان تمّام قد عمل عضواً بمجلس مندوبي اليهود البريطانيين ورئيساً للمنظمة العالمية لليهود القادمين من الدول العربية، ممثلاً لـ٧٠٠ ألف من اليهود الذين تسللوا من البلاد العربية الى فلسطين المحتلة. وقد أصدر عضو الكنيست والوزير الاسرائيلي السابق موردخاي بن-بورات رئيس اللجنة التنفيذية الدولية لمنظمة اليهود القادمين من الدول العربية نداءً غريباً للعالم يطالب بالاعتراف بعملية ما أسماه تبادل السكان- أي بإحلال هؤلاء اليهود مكان الفلسطينيين العرب الذين أجبروهم على الفرار من فلسطين غداة الاستيلاء عليها. ويقول ملكا ان ممتلكات وثروات اليهود التي تركوها وراءهم وصادرتها الحكومات العربية تبلغ مليارات الدولارات وأن تفاصيل ذلك قامت بتجميعها تلك المنظمة (WOSAC)
عمل تمّام أيضاً عضواً بمجلس إدارة المؤتمر اليهودي العالمي، والجامعة العبرية، وجامعة بن غوريون. وفي عام ١٩٨٩ منحه محفل (بناى بريث) جائزة الإنسانية العالمية، التي مُنحت من قبل لعدد من الشخصيات من بينهم لورد ستيف، والملكة جوليانا، والرئيس الأمريكي هاري ترومان، وهنري كيسنجر. وفي كتابه (شخصيات من الجاليات اليهودية في اوروبا) وضعه الكسندر كورين كواحد من هذه الشخصيات. وقد أهدى ليون تمّام نسخة من هذا الكتاب لصديقه ملكا وكتب إليه إهداءً (إلى صديقي العزيز ايلي ملكا، الشخصية التي أحببتها دائماً وأُعجبت بها). قام تمّام بإعادة تأهيل وصيانة عدد من معابد السفارديم في اسرائيل. وقد زار ملكا واحداً منها، وهو معبد يهود سالونيكا في تل أبيب وأبدى

إعجابه بجمال المبنى وحُسن تنسيق الكنيس وإعداده للمصلين. بينما كان إيليا ملكا يقوم بإعداد هذا الكتاب للنشر بلغه نبأ وفاة صديقه ليون تمّام في السابع من يونيو ١٩٩٥. وقد ظل تمّام لمدة عامين يصارع مرض السرطان بشجاعة. وكان بعد أن تلقى العلاج وأُجريت له عمليات جراحية في لندن قد توجه أيضاً الى مركز سلون-كيترنج بالمستشفى التذكاري لعلاج السرطان في مدينة نيويورك حيث زاره ملكا عدة مرات. وفي محاولة للتعبير عن تمنياته الطيبة لصديقه أهداه صلاة خاصة للتعجيل بالشفاء فابتسم وردّ عليه يحدوه الأمل (الياهو حتّابي يزورني). مشيراً الى أنه مُسمّى على النبي أليجا، صانع المعجزات. مات ليون تمّام وهو في السابعة والستين بمستشفى حداسا الجامعي ودفن في جبل الزيتون بالقدس. وتقدر استثماراته في اسرائيل وحدها بمائة مليون دولار امريكي. أما أفراد عائلة تمّام الأخرى فيقيمون الآن في جنيف. وقد كوّن جابرييل تمّام ثروته في الأعمال التجارية في السودان ونيجيريا وواصل نشاطه في اوروبا والشرق الأقصى. ويمتلك في سويسرا مجمعاً تجارياً حديثاً، ويساهم بشكل مكثف في مجالات الثقافة والفن، بشكل مباشر، ومن خلال مؤسسة جابرييل تمّام. وهو ناشر لكتاب حول مدينة جنيف يستعرض تاريخها وتطورها. وفي خلال زيارته الأخيرة لجنيف في عام ١٩٩٣ لقي ملكا وقرينته بيرثا ترحيباً من جانب جابرييل وزوجته لينا ووجها لهما دعوة عشاء فاخر في منزلهما. وفي تلك المناسبة التقى ملكا بعدد من يهود السودان من بينهم ابراهيم ولولا العيني، وقضى وقتاً سعيداً يتحدثون عن أيامهم في السودان. كما تحدث ملكا أيضاً عن البرت تمّام وزوجته ماتيلدا، اللذين أكرماهما أيضاً- هو وزوجته- ودعياهما أيضاً في فندق (بريسدنت هوتيل) على شاطئ بحيرة جنيف والذي يمتلكانه. ويذكر ملكا أنه في نفس الفندق سبق أن التقى بالسيد الهادي المهدي، الذي علم بوجوده في العاصمة السويسرية فدعاه وطلب منه أن يأتي له بأفضل صانعي الساعات السويسريين، حيث كان يرغب في شراء مائة ساعة جيب من الذهب تطبع على ظهرها صورته، وذلك لإهدائها لعدد من أعيان السودان.

ديفيد ملكا

تناول ملكا سيرة شقيقه ديفيد كأحد الوجوه البارزة من بين يهود السودان، كما أنه كان أول يهودي يغادر السودان مهاجراً الى الولايات المتحدة الامريكية في عام ١٩٥٧. فأضحى هناك في نيوجيرسي قُطباً يلتف حوله اليهود وخاصة اولئك الذين يصلون من السودان بالاضافة الى أصدقائهم من غير اليهود. وظل يقدم لهم العون ويذلل الصعاب التي تواجههم في سبيل الحصول على الإقامة والعمل المناسب في شركته ((انترناشونال بورنيو سومطره)) أو الشركات الأخرى ذات الصلة بأعماله. وانغمس ديفيد في النشاط اليهودي متبرعاً لمركز كليفتون اليهودي بنيوجيرسي وعضواً في محفل كليفتون بناى بريث ووسيطاً في المشاكل العائلية اليهودية. وأعرب ملكا عن فخره بذلك النشاط.

ويحكي ملكا عن زيارة الأب اوغسطين باروني (الأسقف فيما بعد) والمسئول الأسبق في الكلية التي تخرّج منها ديفيد -كلية كمبوني بالخرطوم- للولايات المتحدة، وكيف نظّم له احتفالاً جمع فيه خريجي كمبوني الموجودين بأمريكا. وقد توافد هؤلاء الخريجون من جميع انحاء الولايات المتحدة لتأكيد احترامهم لمعلمهم السابق ومدير كليتهم. وكان من بين الذين توافدوا فيكتور شامس من نيويورك، وآل ساسون وآل ملكا من نيوجيرسي، والبرت قاوون من هوستون، وآخرون من الجيلين الثاني والثالث من اليهود الذين ولدوا بالسودان، وقدموا تبرعات سخية لكلية كمبوني.

يهود سودانيون في الشتات

تناول ملكا سيرة يهود سودانيين آخرين تفوقوا في مهاجرهم الجديدة أمثال عائلات دويك واسحاق وسيروسي في المملكة المتحدة واسرائيل، وشوا وملكا وعدس ودانون، وبينو، وباروخ وقدس في اوروبا والولايات المتحدة، وقد تفوقوا في تخصصاتهم ومجالات أعمالهم، وهم الآن في الاربعينات والخمسينات من العمر. ففي الولايات المتحدة -يذكر ملكا أحفاد فرج شوا، أحد أوائل المستوطنين والتجار في الخرطوم، وأحدهم -إبن داود شوا- جوشوا دي. سلفاتور كبير الجراحين في معهد جراحة القلب والرئة والأوعية الدموية في شيكاغو. وحفيده الآخر موريس ساسون ليفي -إبن ساسون سموحا ليفي، وراما فرج شوا الذي بعد تخرجه من كلية الخرطوم الجامعية بُعث الى انجلترا في دورة لدراسة الهندسة لمدة ثلاث سنوات. وبعد عودته الى الخرطوم أصبح مهندسا في بلدية العاصمة. وفي عام ١٩٥٩ غادر السودان الى الولايات المتحدة ليعمل في شركة بارسونز برينكرهوف الهندسية بمدينة نيويورك. وفي أوائل سنوات الثمانين من القرن الماضي أصبح من كبار مهندسيها بمكاتبها الرئيسية في بوسطن، حيث لايزال مقيماً.

ويبدو أن ملكا يقصد بذلك الرجل موسى ساسون ليفي-ربما يكون قد أخطأ في الإسم الأول- وساسون هذا كان أحد طلاب آخر دفعة لثانوية كلية غردون التي تخرجت في ديسمبر ١٩٤٥- في مباني مدرسة أم درمان الأميرية الوسطى- وقد جاء في كتاب (بين شاعرين) لمؤلفه الدكتور فيصل عبدالرحمن علي طه (ص١١٢) أن هذه الدفعة كان أولها بجدارة عبدالخالق محجوب. كما كان من بين طلابها كرار أحمد كرار، ومحمد عمر بشير، وصلاح عبدالرحمن علي طه، وأبوبكر عثمان محمد خير والتجاني الطيب بابكر، ويحيى عبدالمجيد، ومرتضى أحمد ابراهيم، وعباس علي، وامام دوليب، وسلمان بدري، وغيرهم. وقد التحق ساسون بقسم الهندسة في كلية الخرطوم الجامعية، وربما يكون قد توجه بعد ذلك الى انجلترا لمزيد من التأهيل الدراسي.

وتعرض ملكا لذكر أقاربه وأعرب عن فخره بهم. وفي مقدمتهم ابنه جيفري ملكا الذي يعمل الآن رئيسا لقسم جراحة العظام بمستشفى فيرفاكس في شمالي فرجينيا، وابنته ايفيلين كلين، وهي مصرفية عالمية ونائبة رئيس البنك الوطني الجمهوري بنيويورك (جزء من مجموعة ادموند سافرا) المسؤول عن العمليات المصرفية الدولية في اوروبا والشرق الأقصى. وأشار الى أن ابنيه منغمسان أيضاً في النشاط وتقديم التبرعات لكنيسيهما، وربيا أطفالهما على الإيمان بالدين اليهودي، وفخوران بالميراث المشترك للسفارديم والاشكناز. أما ابنة أخيه ديفيد - ديانا آكمان- فقد برزت في مجال التعليم وأصبحت مديرة لبرنامج الدراسات الاجتماعية التابعة لمصلحة التعليم الأمريكية وترأست عددا من البعثات التعليمية نيابة عن ادارة التعليم الى بلدان أخرى مثل الصين والفلبين واندونيسيا وروسيا. وقد شغلت منصب العمدة في وقت سابق في مدينتها ريستون بفرجينيا، وهي ربة منزل وأُم.

ويتحدث ملكا عن نعومي ليفي ويقول انها حفيدة لأخته فيكي برونستين (والمؤلف يستخدم كلمة أخي وأختي لأصدقائه ومعارفه من اليهود وليس لأشقائه فقط). وقد قدمت نعومي ليفي أطروحتين، الأولى في جامعة كولومبيا في عام ١٩٩١ بعنوان (القناع الناعم للامبراطورية: المراسم والدافع السياسي في السودان الانجليزي- المصري، ١٩٢٥-١٩٣٧) وأطروحة الماجستير في جامعة كيمبردج في عام ١٩٩٣، وهي بعنوان (العلاقات الدبلوماسية الامريكية مع السودان ١٩٧٧-١٩٨٥).

سولومون ادموند ملكا -إبن شقيق المؤلف- نجح في مجال الأعمال وجاء الى الولايات المتحدة بعد نشاط تجاري حافل في اسرائيل وايرلندا وجنوب افريقيا. كما نجح في حياته العائلية حيث تخرج أبناؤه في الجامعات الامريكية وشقوا طريقهم في مجالات العمل.

ريموند وسولومون ساسون، الذي يقول عنهما أنهما إبنا أخته اليجرا ساسون، فقد نجحا أيضا في مجال الأعمال ونشآ متدينين ملتزمين، وسولومون وزوجته يهودية سورية ساعدها في الوصول الى الولايات المتحدة يعتبر عنصراً فعالاً في تنظيم يعمل

على (إنقاذ) يهود سوريا. وقد ساعد بالفعل عدداً من اليهود واليهوديات بتسهيل الإقامة واستئناف حياة جديدة في بروكلين بنيويورك. أما أختهما جانيت توليدانو فمعنية بالعمل الانساني، فهي دائما تقف الى جانب المرضى والمعاقين وهي متزوجة من أرون توليدانو، إبن أخ الحاخام يعقوب موشي توليدانو الحاخام الأكبر السابق لمدينة الاسكندرية (١٩٣٠-١٩٤٠)، والحاخام الأكبر الأسبق للسفارديم في تل أبيب-يافا (١٩٣٠-١٩٤٠) ووزير شئون الأديان في اسرائيل من ١٩٥٨حتى هلاكه في عام ١٩٥٩.

ويعرب ملكا أيضاً عن فخره بأحفاده، الذين يقول عنهم، إنهم ساروا على خطى آبائهم في التعليم وفي الالتزام باليهودية. وفي مقدمة هؤلاء جينفر ملكا -ابنة جيفري وسوزان- التي تخرجت وهي في عامها الثالث والعشرين بشهادتي بكالوريوس في جامعة جورج واشنطن في التربية والدراسات اليهودية. وفي نفس الوقت ترفعت في الوظائف التنفيذية حتى أصبحت مساعدة للمدير الاقليمي لسلسلة محلات هيشنجرز التجارية الكبرى. وبالاضافة الى ذلك تستغل وقت فراغها في تدريس العبرية والديانة اليهودية في مدرسة (صنداي) التابعة لكنيسها، فضلاً عن ارتباطها بمحفل (بناى بريث). أما شقيقتها ديبورا فقد تخرجت قريباً في كلية بارنارد، جامعة كولومبيا، بينما لاتزال شقيقتاها دوروثي وجودي في المدارس العليا. ولدى شقيقة المؤلف ايفيلين وزوجها ديفيد كلين طفلان، أليكس الذي بدأ دراسته في الكلية ويبدي شغفاً بالدراسات البيئية وشقيقته لورين في المدرسة العليا.

ويقول ملكا ان هناك قصصاً كثيرةً للنجاح الذي حققه هذا الجيل الذي أصبح ابناؤه أمريكيين وأوروبيين أو اسرائيليين بشكل كامل، ويأمل أن يجدوا في هذا الكتاب قبساً من أصولهم.

يهود السودان في جيش الدفاع الاسرائيلي

يتحدث ملكا بفخر شديد عن أبنائهم وأحفادهم، سلالات يهود السودان في اسرائيل الذين التحقوا بجيش الدفاع الاسرائيلي شباناً وفتيات. وأعلن أنهم شاركوا في حرب اكتوبر وفي المعارك التي دارت خلال الهجمات التي شنها حزب الله اللبناني وحركة حماس. كما شاركوا في قمع الانتفاضة الفلسطينية وأصيب البعض منهم وقُتل آخرون. وقال ان من بينهم العشرات الذين ينحدرون مباشرة من صُلب الحاخام سولومون ملكا- حاخام اليهود في السودان. ونوّه بأثنين منهم نسفت دباباتهما حينما اجتاح الجيش الاسرائيلي لبنان في عام ١٩٨٢.

من أم درمان الى نيويورك

ملكا يروي أحداث طفولته

ولدت في السابع من نوفمبر عام ١٩٠٩ لأبي الحاخام سولومون بن يهودا ملكا وأمي حنا بات ديفيد أصولين ملكا في منزل كان يضم الكنيس أيضاً في مدينة أم درمان. وكانت تلك المدينة شعبية الروح أصبحت سكناً لمعظم اليهود الذين قدموا من مصر منذ اوائل القرن العشرين. كتبت شهادة ميلادي باللغة العربية، ومن المرجح أن القابلة السودانية قد أملت ما جاء فيها: الجنسية- اسرائيلي، والديانة موسوي. وفي سن الرابعة أخذت الى روضة أطفال تابعة لجمعية تبشيرية كنسية حيث كانت مدرّسة الروضة هي أختى الكبرى إيستر. ولما بلغت سن السادسة ألحقت بمدرسة البعثة الكاثوليكية بأم درمان، التي ما لبثنا أن انتقلنا معها الى الخرطوم. وفي الثانية عشرة من عمري نلت الشهادة الابتدائية التي كانت تعادل مستوى المدرسة الابتدائية ذات الثماني سنوات في الولايات المتحدة. إلا أن إدارة كلية غردون رفضت قبولي بدعوى صغر سني حيث كانت تسجل طلاباً في أعمار الخامسة عشرة والسادسة عشرة، لذا تم إلحاقي بالمدرسة الثانوية الانجليزية للأولاد في القسم الداخلي بالقاهرة. وقد تخرجت بالشهادة الثانوية المصرية وشهادة القبول بالجامعة الانجليزية في السادسة عشرة من عمري بمستوى متقدم في اللغتين العربية والانجليزية بالاضافة الى العلوم والرياضيات، ومن ثم بدأت في التعليم الذاتي بحضور دورات دراسية وقراءة كل ما يسترعي انتباهي من المواد الدراسية طوال حياتي. وقد حصلت على دبلوم المحاسبة والتدقيق من مصلحة المالية بالخرطوم، وشهادة في العلوم التجارية من كلية كمبوني، وشهادة في القانون التجاري من وولزي هول بجامعة اوكسفورد. وفي الخرطوم انضممت الى المركز الثقافي السوداني (دار الثقافة) الذي أنشأه المسؤولون البريطانيون ويضم مكتبة ضخمة لشتى أنواع المعارف والعلوم. وأذكر في تلك الأيام محاضرة السير جون

كارمايكل (يقصد ماكمايكل) السكرتير الإداري والتي نصحني خلالها كن مثل الجمل في الدغل يتذوق طعم كل شجرة وأخيراً يستقر في الشجرة التي يفضلها. لذا عليك أن تقرأ شيئاً من كل كتاب وأخيراً ستجد الكتب التي تفضلها. وبهذه الصورة المجازية قارن بيننا نحن السودانيين البسطاء وبين الجمل وكأننا لن نفهم ما يقول إن لم يفعل ذلك، ولكن ذلك التشبيه كان باعثاً للتسلية وجعلني أتذكره دائماً. ومع ذلك أخذت بنصيحته واستقر أمري نهائياً على الاهتمام بكتب التاريخ والاقتصاد والدِّين والسياسة.

نشأت في منزل والدي وعشت حياة وفق قوانين التوراة والتقاليد اليهودية. وكانت احتفالات أعياد اليهود تقام في دارنا وتمتد الموائد العامرة وتجتمع العائلة واصدقاؤها والضيوف القادمون من خارج المدينة. وقد واصلت هذه التقاليد والاحتفال بالمناسبات الدينية في منزلي بالخرطوم وفي جنيف وباريس ووايت بلينس بنيويورك حيث أدعو ضيوفاً من خارج نطاق العائلة وأصدقاء وزواراً يزورون المدينة ويتعذر عليهم الاحتفال في أماكن إقامتهم.

وفي الخرطوم كان احتفال عيد الفصح يقام دائماً في منزل والدي. وكان يفضل حضور أبنائه جميعهم تصحبهم زوجاتهم وأطفالهم. وكان يدعو زوار المدينة من اليهود ويأتي من المعبد وهو يصطحب جميع الذين لا يجدون مكاناً للاحتفال. وكانت أمي دائماً لا تستطيع تقدير عدد الضيوف القادمين، وكانت تعد الطعام لأربعين أو خمسين شخصاً. وكانت تعتمد على مساعدة طباخنا السوداني الذي دربته منذ إقامته معنا وهو في عقده الثاني. وقد تعلم صناعة الأطباق اليهودية. ولمزيد من المساعدة كانت تعتمد أيضا على بناتها الست وسفرجي سوداني.

حنا والدة الياهو

ويذكر ملكا ما كان يجري في احتفالاتهم الدينية والطقوس التي كانوا

يحرصون على أدائها والأناشيد التي كانوا يرددونها حيث يقودهم والدهم ويشرف عليهم. ولما هلك والده الحاخام حرص ملكا على إحياء تلك التقاليد التي يعتقد أنها ساعدته على قوة الإيمان والفخر بيهوديته. ويقول إن ممارسته لتلك العادات والتقاليد مع اعتدال وتسامح السفارديم كانت تختلف عن الممارسات المتطرفة والعادات ليهود أوروبا الشرقية الأورثوذكس. فقد ظل في المدرسة وفي المجتمع وفي الحياة العملية يتصرف بليبرالية مع العديد من أصدقائه المسلمين والمسيحيين بالاحترام المتبادل والتفاهم من خلال الثقافة العربية والإنجليزية فضلاً عن أساليب الحياة المتأثرة بتعدد القوميات والبُعد العالمي.

ملكا يتذكر أيام القاهرة

خلال دراستي بالقسم الداخلي في المرحلة الثانوية بالقاهرة كان والدي يحرص على ترتيب زياراتي لأصدقائه اليهود لحضور الاحتفالات الدينية. ومازلت أذكر من بين تلك الزيارات اسبوعاً قضيته في منزل الحاخام حاييم حامون، عضو محفل بناى بريث التابع لحاخامية القاهرة ورفيق والدي منذ أيام طبرية. وقد اصطحبني خلال أيام الأعياد الكبرى الى كنيس (شعار هاشاميم)(بوابة السماء)، وهو أجمل معبد في العاصمة المصرية. وقد اتخذه الحاخام حاييم ناحوم أفندي - حاخامباشي مصر- مقراً له. كما كان الحزان المشهور حاماوي يؤدي فيه الصلوات. وقد درجت النخبة اليهودية في مصر على حضور الصلوات فيه. وكان يسمى في تلك الأيام معبد الاسماعيلية نسبة لموقعه في تلك المنطقة. وقد تم ترميم وصيانة هذا المعبد في عام ١٩٨١ بتكلفة بلغت ٧٠٠ ألف دولار على نفقة نسيم قاوون رئيس اتحاد السفارديم الدولي. ويعرفه السياح اليهود الذين يفدون الى مصر من جميع أنحاء العالم بكنيس عدلي نسبة للشارع الذي يقع فيه.

تم تشييد كنيس عدلي في عام ١٩٠٣ على نفقة عائلة موسيري بك، المصرفية المعروفة في ذلك الوقت. وفي أواخر سنوات الخمسين والستين بعد هجرة اليهود من مصر التقيت في جنيف مع جيدو موسيرى- أحد أفراد تلك العائلة- وقرينته إبنة إحدى عائلات اليهود السفارديم البريطانيين- آل سموحا الذين كانوا بالاسكندرية. وانعقدت بيننا صداقة امتدت الى الأبناء. وكانت لديهم ثروات طائلة وعقارات متعددة صادرها عبد الناصر في أعقاب العدوان الثلاثي على مصر. إلا أن الحكومة البريطانية دخلت في مفاوضات طويلة مع مصر حتى حصلت على تعويض لهذه العائلة بلغت ١٤.٥ مليون جنيه استرليني، الذي يعتبر مبلغاً صغيراً بالنسبة لقيمة تلك الممتلكات المصادرة.

في تلك الأيام كان هناك كنيس أو أكثر في أي حي من أحياء القاهرة يسكن فيه اليهود، ومعظمها تتبع طقوس السفارديم في العبادة. وقد تمكنت من زيارة كنيس

ميمون في حارة اليهود- سُمي على موسى بن ميمون الطبيب والعالم اليهودي المعروف الذي عاش في مصر بعد خروجه من الأندلس، وقد مات في القاهرة ودُفن في هذا المعبد لمدة سبعة أيام، نقلت بعدها رفاته لتدفن في طبرية حيث أضحى مزاراً للكثيرين من اليهود، والذي كنت أزوره كلما ذهبت الى طبرية.
وفي الجزء الأسفل من هذا الكنيس يأتي اليهود والمسلمون والمسيحيون لقضاء ليلة وهم يفترشون الأرض ينشدون الشفاء من الأمراض التي تستعصي على الدواء. ويقال هناك لوحة لا تزال وضعها الملك فؤاد الذي جاء يستشفي من داء ألمّ به فكتب الله له الشفاء. وكان الحاخام الأكبر الأخير في مصر حاييم دويك قد أشرف على ترميم ذلك الكنيس في عام ١٩٦٧.
وخلف شارع الموسكي هناك أيضاً درب البرابرة حيث يسكن الكثير من يهود الاشكناز ولديهم معبد كبير، وهو الكنيس الذي ينتمي اليه صهري باسكال جولدنبرج، صاحب محلات النظارات المعروف في مصر والشقيق الأكبر لزوجتي الأولى المتوفاة، دورا. كما كان معبد الاشكناز هذا هو المعبد الوحيد الذي لحق به الدمار في القاهرة خلال التظاهرات التي اندلعت في عام ١٩٤٨ عقب إعلان دولة اسرائيل. وقد تمت إعادة بنائه بعد وقت قصير بالتبرعات التي قدمها السفارديم والاشكناز وبمساعدة الحكومة المصرية.
وفي أحدى عطلاتي المدرسية الصيفية أقمت لمدة شهرين في درب البرابرة بمنزل أم صهري بيرنارد جولدنبرج -الاشكنازي- الذي تزوج أختى الكبرى فورتيون. وانعقدت أواصر الصداقة بيني وبين موريس جولدنبرج الذي بات مرشدي لكثير من المحال التجارية التي يمتلكها اليهود الأشكناز في درب البرابرة، والتي يستطيع المرء أن يشتري منها لحم الأوز المفضل لدى اليهود الأشكناز.
وفي عطلة مدرسية أخرى بالقاهرة حضرت احتفالاً بمنزل نسيم شالوم، وهو أحد يهود أم درمان في عهد المهدية. وقد اصطحبتني أرملته وأبناؤه الى (نيفيح شالوم)كنيس السكاكيني المعروف محلياً باسم الكنيسة الكبيرة، لأنه كان أوسع في مساحته من كنيس (شعّار هاشاميم) في منطقة الاسماعيلية.

وفي خلال أحد الاحتفالات غادرت سكني بالداخلية لأقيم في منزل شاباتي دويك، وهو مدير سابق لشركة جيوليو بادوفا أخوان بأم درمان، حيث أصبحنا أنا وابنه نسيم شاباتي دويك صديقين. وبعد أربعين عاماً زرته في محله التجاري بالعاصمة السويسرية جنيف. صحبني آل دويك الى كنيس حي الظاهر. والظاهر والسكاكيني هما حيان سكن فيهما كبار الأثرياء من اليهود في تلك الأيام.

وجدت فرصة سانحة خلال وجودي في داخلية المدرسة لممارسة لعبة كرة القدم وهي الرياضة التي لازمتني فترة طويلة من حياتي، ذلك بالاضافة الى لعبة كرة التنس. وقد أتاحت لي المشاركة في مباريات كرة القدم التنقل والمشاركة في حفلات الشاي التي كان تقام عقب المباريات. وقد زرت حلوان في اطار ذلك النشاط، وهي المدينة التي تضم مصنع اسمنت بورتلاند الذي ارتبطت به من خلال عملي في سنوات لاحقة. وأذكر أننا انتصرنا على فريق حلوان في تلك المباراة التي كنت أساعد الحكم فيها كرجل خط. وقد تملكني خوف شديد عندما تناهى الى سمعي تهديد جمهور حلوان بالانتقام، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث. واستمتعنا بحفل الشاى الذي أقامته المدينة على شرف الفريقين.

وفي خلال تلك الأيام المدرسية، تعلمت لعبة كرة التنس على يد مستر كوبر، وعندما عدت الى الخرطوم انضممت الى أندية تمارس هاتين اللعبتين، وذلك قبل أن نقوم بتأسيس فريق نادي ماكابي لكرة القدم.

تجربة ملكا في شركة جلاتلي هانكي

كانت أول وظيفة أحصل عليها في قسم الشحن بشركة جلاتلي هانكي البريطانية بمرتب قدره ثمانية جنيهات شهرياً (حوالي ثمانية جنيهات استرلينية). وبعد أشهر قليلة تقدمت باستقالتي بعد حصولي على وظيفة أخرى بمرتب قدره عشرة جنيهات في الشهر، في قسم الإمدادات بقوة دفاع السودان. ثم لم ألبث أن عدت لشركة جلاتلي هانكي التي استمر صعودي في وظائفها حتى بلغت قمة السّلم.

وفي قسم الإمدادات بقوة دفاع السودان كنت أعمل في المحاسبة والتدقيق في مكاتب بمبنى مصلحة المالية حيث حضرنا دورات تدريبية مكثفة في التدقيق والمحاسبة تحت إشراف كبار مفتشي المالية. وكان من بينهم شقير (الذي أصبح من أشهر اللبنانيين الذين عملوا في حكومة السودان). وكان ترتيبي في مقدمة المجموعة التي ضمت موظفين أسنّ مني وأكثر خبرة وتجربة. ومازلت أعتقد أن هذه الدورات كان لها أثر كبير في حياتي العملية لأنها منحتني فهماً مبكراً لطبيعة العمل في المجال المالي وتحليل التقارير .

وفي خلال خدمتي في قسم التدقيق- تحت اشراف مدقق بريطاني- اكتشفت بعض الأخطاء الخطيرة في حسابات بعض مخازن الإمدادات- الأمر الذي تم رفعه الى أعلى المستويات. وفي نهاية العام طلبت زيادة في راتبي لأبلغ مستوى زملائي الكتبة المدققين القدامى الذين أقوم بنفس العمل الذي يؤدونه. وعلى الرغم من الدعم والتوصية من جانب المدير الانجليزي لقسم التدقيق إلا أنني لم أحصل على زيادة في الراتب، لذا ارتأيت التقدم باستقالتي. وأعتقد أن صغر سني واللوائح الحكومية شكلت عائقاً أمام ما كنت أصبو اليه.

ولما علمت شركة جلاتلي بنبأ استقالتي طلبت مني العودة مجدداً الى وظيفتي براتب شهري قدره اثنا عشر جنيهاً، وهو راتب يعتبر كبيراً في تلك الأيام وخاصة لشاب لايزال في التاسعة عشرة من عمره. وربما يكون حلماً للموظفين الذين يبلغ الواحد منهم سنّ الثلاثين. وكان ذلك المبلغ- خلال العقد الذي امتد من ١٩٢٥-

١٩٣٥- كافياً لأسرة تتكون من أربعة أشخاص وتعيش في الخرطوم. وكنت أعطي والدي معظم راتبي للمشاركة في مصاريف البيت وتلبية احتياجاته، حيث كنت لاأزال أعيش معه. إلا أنني كنت أحتفظ ببعض المال كمصاريف شخصية. حدث ذلك في الوقت الذي كانت فيه الحكومة والبنوك الأجنبية والشركات التجارية في حاجة لموظفين أجانب، لذا كانت تتجه لاستيراد موظفين من اللبنانيين وأحياناً اليهود. والسبب في ذلك يعود لقلة خريجي كلية غردون- وهي المدرسة الثانوية الوحيدة والمتخصصة في التأهيل الوظيفي.

وعندما عدت لشركة جلاتلي هانكي ألحقت بقسمها التجاري بالخرطوم، والذي كان قسماً صغيراً مختصاً في الصادر والوارد برئاسة باشكاتب مسؤول عن المشتريات المحلية والمبيعات تحت إشراف مدير انجليزي. أحببت عملي وسرعان ما اجتذبت اهتمام ومحبة مديري جلاتلي، لما كنت أبديه من تفانٍ ومثابرة. وفي خلال أقل من ثلاث سنوات أصبحت باشكاتباً للقسم، ولم ألبث أن حللت مكان المدير الانجليزي وأصبحت مديراً للقسم التجاري ومسئولاً عن تطوير عمليات الصادر والوارد وكافة أنواع النشاط التجاري لشركة جلاتلي هانكي.

وهكذا بدأت مسيرة عملية استمرت ثلاثين عاماً، استطعت خلالها تحويل القسم التجاري الى شركة جلاتلي التجارية المحدودة، إحدى أهم شركات الصادر والوارد في السودان والتي تضم عدة أقسام تغطي جميع أوجه النشاط التجاري. وفي خلال تلك المراحل كان يشجعني ويرعاني كل من جون ألان سميث المدير الاداري وآرثر إف. جي. كارتر المدير المالي بمجموعة شركات جلاتلي في الخرطوم. وكان لهما الفضل في اتخاذ القرار- بالخرطوم ولندن- الخاص بتحويل الأقسام والنشاط الذي قمت بتطويره الى شركة مستقلة في المجموعة، هي شركة جلاتلي التجارية المحدودة التي ترأستها. ومنذ بداية إنشائها في عام ١٩٣٥ كنت مديرها وكبير المسئولين التنفيذيين فيها. ذلك بالإضافة الى مسئوليتي كمستشار لمصنع جلاتلي للصابون وكمستشار تجاري لفروع شركة جلاتلي ومكاتبها في اثيوبيا وأريتريا ومصر.

كان إي. ان. بندل -الذي أبلغني بقرار مجلس إدارة شركة جلاتلي التجارية- قد اختير للعمل معي في رئاسة الشركة. وكان بندل قد عمل كمدير بمكاتب الشركة في بورتسودان وأديس أبابا وقام بتنظيم المحاولات الرامية لتعبيد طريق السيارات الذي يربط بين مزارع البن بمناطق غربي اثيوبيا الى جمبيلا- الميناء النهري- ليتم نقل الإنتاج الى السودان.

على الرغم من المحاولات التي بذلتها شركات أخرى بإغرائي للعمل معها، إلا أنني تمسكت بشركة جلاتلي التي أجزلت لي العطاء في نهاية الخدمة. كما كنت أتقاضى العمولات المجزية التي كانت لا تفتأ تتصاعد نسبتها. وبالاضافة الى الراتب الذي كان يماثل راتب مدير انجليزي وبدل سكن مفروش (لأنني كنت أمتلك منزلاً خاصاً) بالاضافة الى تذاكر السفر الجوي في الدرجة الأولى لي ولزوجتي الى المملكة المتحدة. وفوق ذلك كنت أتقاضى نسبة من أرباح شركة جلاتلي التجارية قبل احتساب أي مصاريف أو استقطاعات ضريبية. وفي خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة من خدمتي كنت أتقاضى أيضاً عمولات ضخمة مكنتني من امتلاك منزلين، أحدهما بالخرطوم والآخر بالعاصمة السويسرية، جنيف. كما تمكنت من تعليم إبنيّ في أفضل المدارس والجامعات الأوروبية وجمعت ثروة ساعدتني في مقبل السنوات.

توثقت أواصر الصداقة بيني وبين عدد من مسئولي شركة جلاتلي في الخرطوم ولندن. وكان من بين هؤلاء سميث وكارتر اللذان شغلا منصب المدير الإداري بالتتابع في العاصمتين السودانية والبريطانية، وار. واى. رول المساهم الرئيسي في الشركة والذي كان رئيساً للمجموعة، وارثر فريدريك واى وهوج مايلز وروبرت جيديس جيبسون- الذين خلفوهم في المناصب)، ومدير مالية المجموعة ريتشارد دي كامبل والكسندر نيفين.

وفي أواسط سنوات الخمسين عقب اعلان سودنة الوظائف العليا نجحنا في اجتذاب شخصيات سودانية مهمة للإنضمام الى مجلس الإدارة، من بينهم السيد مكاوي سليمان أكرت، الذي كان يعمل مديراً إدارياً لمشروع الجزيرة، كما شغل منصب

وكيل وزارة الداخلية. وبات أكرت صديقاً حميماً لي حيث قضينا وقتاً ممتعاً معاً عندما كنا نسافر سوياً لتفقد فروع الشركة في مختلف أنحاء السودان، وارتباطات العمل في أوغندا وكينيا.

وقد تزامن تنامي شركة جلاتلي التجارية المحدودة مع نمو شركة جلاتلي الهندسية، التي تعاملت مع جميع المنتجات الهندسية. وكان لديها مهندسوها الخاصون وورشها الهندسية وخدماتها. وبالاضافة الى طاقمها الوظيفي كان هناك ممثلون للوكلاء والمستوردين لمنتجات شركة موريس بخدماتها وسيارات أوستن (نوفيلد)، ودودج وغيرها من الشاحنات والعربات وجرارات كاتربيلار، والمعدات والآليات الزراعية لشركة موريس هاريس ومكيفات الهواء وأجهزة راديو فيلبس والمعدات المنزلية.

في عام ١٩٧٢ تم تأميم مجموعة شركات جلاتلي وأُعفي جميع مديريها السودانيين والانجليز من مناصبهم وتحولت إدارتها لمديرين سودانيين آخرين، وفي بعض الحالات تم دمج بعض الشركات. وبسبب تميزها تم تسمية المجموعة بشركة مايو للعاملين التجارية تيمناً بانقلاب مايو الذي جاء بجعفر نميري الى السلطة. ولكن للأسف فقدت الشركة موقعها المتميز وأخذ نشاطها يضمحل ولم تصمد أمام منافسة الشركات الأخرى.

وفي عام ١٩٩٢ انتهت شركة جلاتلي الأم في لندن وذابت مجموعتها في مجموعة إنكيب للشحن والخدمات. سبب لنا ذلك المصير كثيراً من الأسى نحن الذين ارتبطنا بإسم جلاتلي، ولكن ذلك ليس غريباً على الشركات الخاصة العملاقة التي يتم طرح أسهمها في بورصة لندن.

أتاحت لي فرصة العمل في شركة جلاتلي السفر في مناطق السودان- من أقصاه الى أقصاه- فضلاً عن زيارة مناطق أخرى في القارة الافريقية والشرق الأوسط وأوروبا، الأمر الذي وسّع معارفي ودائرة أصدقائي بالتزامن مع وضعي كزعيم ورئيس للجالية اليهودية بالسودان.

يعود تأسيس شركة جلاتلي الى عام ١٨٦٢ في لندن على يد اجوارد جلاتلي وجيمس

أليرس هانكي، اللذين خلفا دنكان دنبار (الثاني) الاسكتلندي الذي كان رمزاً بارزاً في عالم البحرية كمالك للسفن. وأصبحا وكيلين لسفن الشحن والركاب في العديد من الخطوط البحرية البريطانية والعالمية، ويوفران خدمات الشحن في الموانئ والمدن الكبرى بالمملكة المتحدة.

وفي المملكة المتحدة كان لديهما مكاتب في لندن وليفربول وجلاسجو ومانشيستر، وفي الدول الاوروبية الأخرى أنتويرب وروتردام وهامبورج ومارسيليا.

جاءت شركة جلاتلي هانكي الى منطقة البحر الأحمر حوالي عام ١٨٨٤-١٨٨٦، وافتتحت مكاتب في مينائي سواكن بالسودان وجدة بالحجاز. وكان في الميناءين محطتا تزويد بالوقود للسفن العابرة، كما شهدتا النشاط الخاص بإمداد القوات البريطانية وحركة الحجيج المسلمين الى الأراضي المقدسة. كانت سواكن ميناءً افريقياً على البحر الأحمر في الطريق الى الهند ذات أهمية إستراتيجية للبريطانيين الذين دافعوا عنها بشراسة حتى لا تسقط في يد قوات المهدية بقيادة الأمير عثمان دقنة. وظلت سواكن طيلة فترة الدولة المهدية في يد الحكومة المصرية تعززها القوات البريطانية بقيادة الضباط الانجليز. وفي أثناء الهجمات الشرسة التي كان يشنها الأمير عثمان دقنة في عام ١٨٨١م وتعرض ميناء سواكن لخطر



مكاتب جلاتلي في بورتسودان

السقوط في يده، أصبحت مكاتب شركة جلاتلي هانكي مقراً للقيادة العسكرية. وكان السير ريجنالد ونجيت يخطط حملته من هناك.

وقد ضرب عثمان دقنة حصاراً محكماً وهو يقود الهدندوة الأنصار (الذين عرفهم البريطانيون بإسم فزي وزي) لأكثر من ثلاثة أشهر، إلا أن البريطانيين لم يلبثوا أن بسطوا سيطرتهم على ساحل البحر الأحمر.

ولقد تسنى لي زيارة سواكن في سنوات الخمسين من القرن الماضي مع صديقي أحمد جادالله الذي كان مسؤولاً عن القسم التجاري لشركة جلاتلي في ميناء بورتسودان. وهناك شاهدت مباني المكاتب والمنازل لقديمة التي شيدتها الشركة، وقد تمت صيانتها كموقع تاريخي تحت اشراف مدير مكتب سواكن.

وقد أطلق صديقي آر. جي. جيبسون، المدير الإداري السابق لشركة جلاتلي في السودان ولندن، إسم (سواكن) على منزله الواقع على ساحل القنال الانجليزي في ويست بوشام- ويست سيسيكس- في ذكرى الدور الذي لعبته شركة جلاتلي في تلك المدينة. وكان كريماً معي عندما زودني بمعلومات تاريخية كنت في حاجة إليها من كتاب قام بتأليفه جورج بليك عن شركة جلاتلي، وهي نسخة عثر عليها جيبسون وبعث بها إليّ حيث نفذت الطبعة منذ زمن طويل.

ومن مقرها في سواكن تمددت شركة جلاتلي بمكاتبها وخدماتها في جميع أنحاء السودان ومنطقة البحر الأحمر. وفي عام ١٩٠٥ افتتحت مكاتبها في ميناء بورتسودان الجديد بعد أن اكتملت فيه المنشآت وأحواض السفن. كما افتتحت مكاتبها في الخرطوم في عام ١٩١١ حيث انتقلت المكاتب الرئيسية للشركة. ومن هناك قامت بتأسيس مكاتبها في مصوع عام ١٩١٥ وفي أسمرا حوالي عام ١٩٢٥، وفي أديس أبابا وجيبوتي في العام التالي. أما في القاهرة فقد أنشأت مكاتبها في منتصف الخمسينات.

وفي جميع هذه الموانئ كانت شركة جلاتلي توفر كامل خدمات الشحن والتفريغ بما في ذلك التخزين في المستودعات والمراقبة والتأمين والتزويد بالوقود.. وغير ذلك. وفي أوقات لاحقة تطورت هذه الخدمات الى الدرجة التي باتت معها شركات خاصة

في المجموعة: الشركة السودانية للتخزين في المستودعات، وشركة البحر الأحمر للتحميل والتفريغ، والشركة السودانية للشحن والمخازن العامة. وظلت شركات جلاتلي هانكي لمدة خمسين عاماً تستأثر بنسبة ٥٠ بالمائة من خدمات الشحن للصادر والوارد لحكومة السودان.

وقد أنشأت شركة جلاتلي التجارية المحدودة أقساماً تجارية لها في جميع فروع المجموعة في مدن بورتسودان ووادي حلفا، وود مدني والأبيض وكوستي وجوبا، كما عينت وكلاء وعملاء في جميع أنحاء السودان. وكانت هذه الأقسام تعمل كمراكز مبيعات للسلع المستوردة ولشراء المنتجات الخاصة بالتصدير.

وكان اسلوب المشتريات في مراكز الإنتاج طريفاً ومُمتعاً، حيث تعقد مزادات يومية تحت اشراف دلالين ومراقبين من الحكومة. ويأتي المزارعون بمحاصيلهم التي يتحلق حولها عملاء ووكلاء المصدرين، وتبدأ عملية المزاد ووزن المحاصيل وتسليمها للمشترين. وتعتبر هذه العملية عادلة بالنسبة للمزارعين الذين يجدون أسعاراً مُجزية في إطار تنافس المشترين. وفي أسواق منطقة كردفان كانت المحاصيل ترد يومياً وأهمها الصمغ العربي والسمسم والحبوب والفول السوداني. أما اسواق القضارف فتستقبل منتجات السمسم والذرة وا لصمغ العربي. وفي الخرطوم يبيع المتعاملون منتجات بعقود مؤجلة للمصدرين من خلال سماسرة محليين.

وفي المكاتب الرئيسية لشركة جلاتلي هناك قسم الاستيراد (A) - الذي كان أول ما تم تأسيسه - ويضطلع بعمليات توريد دقيق القمح والشاي والبنّ والأرز والصابون، الذي كان يأتي في البداية من مصر قبل ان تشيد جلاتلي مصنعها للصابون بالمنطقة الصناعية في بحري. كان فوزي ميخائيل مدير القسم من أوائل مساعديّ في القسم التجاري. وبعد تأمين شركات جلاتلي عمل فوزي في شركة أبو العلا التجارية- إحدى الشركات السودانية الكبرى- ومن ثمّ تقاعد ليعيش بقية حياته في القاهرة. وهناك أيضاً عزيز قلدس الذي عمل معي مساعداً في فترة باكرة، ثم أصبح مديراً لمصنع الصابون.



مصنع الصابون في بحري

وفي خلال الحرب العالمية الثانية كان لابدّ من تنظيم واردات السلع الاستهلاكية والتحكم فيها وأحياناً إخضاعها لنظام الحصص التموينية مثل السكر والشاي والبن. وقام السير سارفيلد هول، مدير مديرية الخرطوم بتعييني في مجلس الإمداد الحربي. وبعد الحرب كتب لي رسالة شكر رقيقة على ما قدمته من خدمات. وقد ضم هذا المجلس بعض الموردين الرئيسيين وبعض تجار الجملة والمفرق السودانيين وممثلين للحكومة ومصلحة الاقتصاد والتجارة برئاسة آر. بير مفتش مركز الخرطوم. وفي نفس الوقت كنت عضواً في لجنة غرفة التجارة السودانية، وكانت مهمتها تنحصر في تحديد الهامش الربحي المسموح به لجميع الواردات. خلال الحرب وضعنا اتفاقاً لعمليات شراء وتمويل وتوزيع مشتركة لبعض السلع الأساسية. وكان لكل سلعة- كالقمح والشاي مثلاً- اتفاق يضم مجموعة المستوردين السابقين يقضي بتقسيمها بينهم بصورة نسبية حسب حجم استيرادهم في السابق، مع تخصيص نسبة للموردين الجدد. وفي كل هذه الاتفاقات كان يتم اختيار شركة جلاتلي وكيلاً، لذا كنت أنا ومرؤوسيّ من الموظفين نقوم بكافة العمليات المتعلقة بالمشتريات والتوزيع والحسابات ونلعب دوراً أساسياً في اتخاذ القرارات. وباستخدامنا لهذه الأساليب تمت خدمة البلاد بصورة جيدة، وكانت من أكثر الدول رخصاً في الأسعار خلال فترة الحرب.

وفي قسم الاستيراد (B) بشركة جلاتلي التجارية كنا نقوم باستيراد وبيع قماش الدمورية الذي كان يستخدم كملابس للرجال وأكياس لتعبئة الكثير من المحاصيل والخيش الذي كان يستخدم أيضاً كأكياس لتعبئة القطن المحلوج والأسمدة والمعدات والسكر الذي كانت تحتكره الحكومة.

كان إنتاج القطن قد بلغ ذروته، إلا أنه تم تقليص زراعته في السنوات اللاحقة لصالح منتجات أخرى. لذا كان مجلس إدارة مشروع الجزيرة ووزارة الزراعة من أكبر المشترين للخيش والأسمدة والمبيدات اللازمة لنجاح المحصول. وكانت شركة جلاتلي تنجح دائماً في الفوز بعطاءات الجزء الأكبر من مشتريات هذه السلع.

كانت مصلحة الجمارك السودانية مسئولة عن إدارة احتكار الحكومة لسلعة



تفريغ السلع في ميناء بورتسودان

السكر. وفي ذلك الوقت كان يتم استيراد السكر وشراؤه من خلال عطاءات دورية. وكانت شركة جلاتلي تنجح أيضاً في الفوز بتلك العطاءات. وفي بداية سنوات الستين بدأت زراعة السكر وانتاجه، الأمر الذي مكّن السودان من الاكتفاء الذاتي وتصدير الفائض من الإنتاج. كنت أقوم بكل هذه العمليات بمساعدة من أقسام التصدير والتوكيلات.

وكان قسم التوكيلات التابع لشركتنا يتعامل مع عدد كبير من التوكيلات تمتد من مشتريات ألن آند هانبري الى منتجات نيستلة، ومن سجاير كاتاريلو المصري الى

بينسون آند هدجز الفيرجيني، ومن منسوجات مانشستر الى المواد الخام التي تحتاجها المصانع المحلية مثل صفائح الألمنيوم لصناعة الأواني والبوليثيلين ومواد كيماوية أخرى لصناعة معدات بلاستيكية محلية والزيوت والراتينج لصناعة الصابون. ومن خلال توكيل شركة شل كنا نستورد المبيدات الحشرية للوقاية من الأمراض التي تؤثر على نبات القطن. ويتم رش المحصول بواسطة طائرات صغيرة. وفي اطار الخدمات التي كنا نقدمها لمزارعي القطن قمنا بتعيين أحمد عبدالرزاق، الكيميائي الزراعي، الذي كان يجوب مزارع القطن للفحص ورفع التقارير الخاصة بوجود الأمراض. وفي الزمن المحدد يصل الطيارون من بلجيكا للقيام بعمليات الرش مستخدمين المبيدات التي تزودهم بها الشركة. ولما كانت تلك المواد الكيميائية ضارة وأحياناً خطرة، كنا نتخذ كل التدابير اللازمة لحماية المزارعين باخلائهم في الوقت المناسب. وأنا جد سعيد بأن حادثة واحدة لم تقع ولم يصب أي انسان، إلا أنني أذكر أن حماراً ضالاً كان قد أُصيب.

كان آخر مدير لقسم التوكيلات جورج شقي، من قدامى موظفي الشركة الموثوق بهم. وقد تقدم في العمل حتى أصبح مساعداً لي في أقسام أخرى. وعندما تركت العمل في شركة جلاتلي حلّ مكاني كمدير تنفيذي لجلاتلي التجارية. وقد غادر شقي في وقت لاحق وتقاعد في الولايات المتحدة حيث سبقه إبناه جابي وكامل. وظل على إتصال بي حتى سمعت نعيه- وأنا أقوم بدفع هذا الكتاب الى المطبعة- حيث توفي في أونتاريا بكندا.

ومن بين أقسام شركة جلاتلي التجارية للاستيراد، كان هناك قسم الإمدادات والآليات مع الورش التابعة له. وكان بمديره أحمد عبدالفتاح وكيلاً لشركة الآلات الكاتبة امبريال وشركة جيستتنر للآلات الناسخة ويقوم بتوفير المعدات وخدماتها الضرورية.

ومن بين الأقسام المهمة أيضاً لشركة جلاتلي التجارية قسم مواد البناء بمخازنه الرئيسية في المنطقة الصناعية بالخرطوم. وكان يقوم باستيراد وتخزين جميع المواد الضرورية للبناء من حديد وألمنيوم وأخشاب واسمنت وأصباغ.. وغير ذلك.

وكان مدير مستودعات التخزين هو صديقي القديم جوزيف سوريانو، من كبار المحاسبين السابقين ومدير فرع، أما مدير الاستيراد فهو ادموند كاسباريان، الذي عمل معي في المكتب الرئيسي.

كان الاسمنت أحد أهم مواد البناء التي يتعامل معها القسم. ولفترة من الزمن كنا نستورد تلك المادة من شركة بورتلاند للاسمنت البريطانية ومن شركة بورتلاند للاسمنت بحلوان، اللتين كانتا جزءاً من مجموعة تايجر ومقرها في الدنمارك. ومازلت أذكر نيجارد، رئيس المجموعة الدنماركية الذي زار الخرطوم لبحث امكانية تأسيس شركة للاسمنت بالسودان مع أيه. أف. داى المدير العام لمجموعة شركة جلاتلي في ذلك الوقت وشخصي. وفي وقت لاحق بعث نيجارد من الدنمارك ومصر مجموعة من الخبراء للبحث عن أماكن أفضل خام للاسمنت في السودان. وكان من بين هؤلاء الخبراء كيميائي مصري يدعى أحمد أفندي الذي أجرى أبحاثه في أجهزته التي خصصنا لها أحدى غرف مكاتبنا بالخرطوم. وقد أنفق ساعات طويلة وهو يحلل العينات التي تلقاها من جميع أنحاء السودان لتحديد نوعية خام الاسمنت الأفضل.

وفي النهاية عثرت مجموعة نيجارد في منطقة عطبرة على كميات هائلة من خام الاسمنت من النوعية الجيدة، وهناك نشأت مصانع شركة بورتلاند للاسمنت في السودان، بمقرها الرئيسي في مدينة عطبرة، حيث توجد ايضاً رئاسة مصلحة السكة الحديد السودانية. وهكذا أصبحت شركة بورتلاند تزود السودان بمعظم احتياجاته من الاسمنت حيث تقوم شركة جلاتلي بتوفير عملاء التسويق والموزعين في جميع انحاء البلاد.

كان أيه. اف. داي أحد هؤلاء البريطانيين الذين يجدون متعة في ممارسة العمل التجاري، وقد تنامت خبراتنا معاً في هذا المجال. ومازلت أذكر ترددنا معاً على المزادات التي كانت تقيمها الحكومة للاراضي في المنطقة الصناعية- بحري لشراء قطعة أرض لتشييد مصنع الصابون التابع لشركة جلاتلي، والمنطقة الصناعية- الخرطوم لشراء قطع أراضٍ لبناء مخازن معدات البناء. وقد أصبحنا صديقين،

وكانت مصادفة طريفة أن تكون زوجات مديري شركة جلاتلي التجارية الثلاثة يحملن اسماً واحداً، دورا ملكا، ودوروثي كارتر، ودوروثي داي.

كان قسم التصدير الوحدة الأكثر أهمية في شركة جلاتلي التجارية، حيث استطاع تطوير عمليات الصادر للمنتجات السودانية وأقام علاقات جيدة في الأسواق العالمية. فكلنا نصدر بذور القطن من مشروع الجزيرة ومشاريع دائرة المهدي الزراعية وغيرها من منتجي الأقطان الى مصانع الزيوت العالمية، مثل مصانع شركة (يونيلفر بروذرس) ومقرها في روتردام وشركة (شسمن أويل ميلس)في حيفا قبل توقف التجارة بقيام دولة اسرائيل. كما كنا نشارك في تصدير محصول السمسم الى مصر وأوروبا واليابان، ذلك بالاضافة لمحصول الفول السوداني (وكان لدينا ماكينات لتقشيره في الأبيض)، والأمباز لعلف الحيوان والذرة في نفس الوقت. أما الى مصر ومنطقة الشرق الأوسط، فكنا نصدر- غير السمسم- حب البطيخ من كردفان والفاصوليا البيضاء والفول المصري- وهو طبق مفضل في مصر والسودان، كمحل بنيامين في الاسكندرية ومحمد الفوال في الخرطوم. أما حب البطيخ فيتم تحميصه كتسالي للقزقزة مثل الحمص والفشار في الولايات المتحدة وغيرها.

كان موظفو فرع شركة جلاتلي بالقاهرة هم عملاء المنتجات السودانية لبيعها في مصر. وكان في مقدمتهم زكي فانوس، وهو ضابط شرطة مصري سابق. وقد تمت مصادرة هذا المكتب من قبل الحكومة المصرية عقب العدوان الثلاثي على مصر في عام ١٩٥٦.

والآن علمت أن جميع أو معظم محصولي بذور القطن والفول السوداني يستخدم محلياً لإنتاج الزيوت للاستهلاك المحلي. فالآمال التي كانت منعقدة على تحول السودان لسلة غذاء الشرق الاوسط راحت هباء. وبدلاً عن ذلك أصبح السودان بعد سنوات الجفاف والمجاعة يضطر أحياناً لاستيراد احتياجاته من المواد الغذائية.

كان الصمغ العربي والقطن أهم سلعتين يصدرهما السودان وكان للمصدرين لهما من السودان أهمية خاصة كعملاء لخطوط الشحن لشركة جلاتلي. وقد اختارت

الشركة عدم منافستهم في التصدير. وقد احتكرت الحكومة تصدير الصمغ الآن. كما اختارت ايضاً ألاّ تنافس في تصدير القطن، إلا أنها كانت تقدم لعطاءات انتاج مشروع الجزيرة في الغرفة التجارية السودانية بالخرطوم نيابة عن شركة راى ايفانز وشركاه احدى أكبر الشركات المصدرة للقطن المصري والسوداني، والتي كان مديرها الكسندر بن- لاسين صديقاً حميماً لي. وكنت أحياناً أتفاوض نيابة عن شركة (راي يفانز) مباشرة للشراء من منتجي الأقطان.



هيئة موظفي شركة جلاتلي

كان أحد أوائل مديري قسم التصدير بجلاتلي إبن أخي ماير ملكا الذي انضم فيما بعد لشركة (راي ايفانز) مديراً لقسم الاستيراد فيها ببورتسودان. وفي وقت لاحق هاجر الى الولايات المتحدة وعاش في نيوجيرسي حيث يدير أعمالاً ناجحة. وقد خلف ماير في وظيفته عزت سامي زاخاري، وبعد تأميم جلاتلي أسس شركة أريزونا التجارية في الخرطوم وتعامل بنفس أسس الوكالة مع العديد من نفس الخطوط التي تعاملت معها شركة جلاتلي التجارية في الماضي. وفي السنوات

الأخيرة أدارها من خلال شركة سامزوك التجارية التي أسسها في ليماسول بقبرص. وقد ظل عزت وشركته على اتصال دائم معي في كل من فرنسا والولايات المتحدة حيث أثبت أنه رجل أعمال نشط وصديقاً حميماً. وقد قمت بمساعدة شركاته في أعمالها بالسودان ونشاطها في أوروبا والولايات المتحدة ومن خلال ذلك احتفظت بصلاتي مع الشؤون السودانية.

كان آخر مدير لقسم التصدير بشركة جلاتلي جمال عزيز تادرس الذي اكتسب خبرة واسعة في مجال المنتجات السودانية والصادرات، وبعد تأميم شركة جلاتلي أسس أيضاً شركته الخاصة للتصدير بالخرطوم والتي حقق من خلالها نجاحاً كبيراً.

بعد تأميم شركات جلاتلي هانكي تم تسريح جميع المديرين ورؤساء الأقسام. ولاريب في أن ذلك ساهم في تدهور أوجه نشاطها حيث استمرت تحت اسمها الجديد (شركة مايو التجارية).

كانت جلاتلي مجالاً واسعاً وخصباً للتدريب. وعندما كانت ابنتي ايفيلين تعود في عطلتها المدرسية السنوية، حيث كانت تدرس في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة جنيف تقضي جزءا من وقتها في الأقسام التجارية للشركة لتتابع نشاطها عن قرب. أما ابني جيفري الطالب بكلية الطب فكان يفضل أن يقضي اجازته في التجول في أنحاء السودان للتعرف على المناطق التاريخية والثقافية كخزان سنار على النيل الأزرق ومناطق ود مدني ومزارع مشروع الجزيرة.

رحلات ملكا في الداخل ودول الجوار

كثيراً ما كنت أقوم برحلات عمل خلال السنة ا لى جميع المدن السودانية والأسواق المهمة، وأحياناً الى الدول المجاورة. وقد قادتني زيارات العمل هذه الى وادي حلفا وبربر وعطبرة وشندى ومروي ودنقلا في الشمال الى منطقة جوبا في الجنوب. كما قادتني من بورتسودان والقضارف وكسلا في الشرق الى الأبيض والدلنج في منطقة جبال النوبة حتى الفاشر والجنينة في دارفور، أقصى غرب البلاد. وقد تنقلت أيضاً من ود مدني وسنار على النيل الأزرق الى مدينتي كوستي وملكال على النيل الأبيض. وسافرت من جوبا بالسيارة الى بولس – قلب منطقة زراعة البن وزيت النخيل في الكونغو البلجيكي (المعروف الآن بزائير)، وغربا الى عنتيبي وكمبالا في اوغندا ونيروبي في كينيا.

كان السفر في المنطقة شاقاً، واحياناً يتطلب وسائل مختلفة للوصول الى الجهات المعنية. فمن الخرطوم كنت أستطيع السفر جواً الى العاصمة الأريترية أسمرا، ثم بالسيارة الى منطقة مصوع. أو من العاصمة الأثيوبية أديس أبابا بكل من القطار والسيارة الى ديردوا وهرر– مناطق زراعة البن الأثيوبي– وكنت أحياناً حين يشتد الحرّ في صيف الخرطوم القائظ أصحب زوجتي دورا في رحلاتي الى أسمرا وأديس أبابا حيث تنخفض درجات الحرارة نتيجة الارتفاع الذي يبلغ سبعة آلاف وثمانية آلاف قدم للمدينتين على التوالي. ولكن ذلك الارتفاع كان يسبب بعض المشاكل في التنفس لزوجتي بسبب النقص في الأوكسجين لعدة أيام. وعلى الرغم من أنني كنت أسافر لتلك المناطق في رحلات عمل إلا أنها كانت لا تخلو من بعض المباهج.

وفي احدى زياراتي لمدينة جوبا عاصة الجنوب السوداني كنت أنهض من فراشي في ساعات الصباح الأولى لأتجول على شاطئ النهر لأشاهد التماسيح وأفراس النهر التي تغتنم الفجريات الباكرة بهدوئها لتسبح قريباً من الشاطئ. وقد حدثني جماعة عن الأسد الذي اعتاد أن يقف في وسط الطريق على بعد ساعة من الزمن من المدينة. وقيل انه كان يتحرك ببطء وتثاقل نحو الأجمة حين تفاجئه أنوار

السيارة فتعشي ناظريه. ولليلتين كنت أتوجه الى موقعه لأراه إلا أنه كان يتخلف عن الحضور. وقد شكوت أمره لأبناء عمومته الذين شاهدتهم يمرحون بحرية في حديقة نيروبي الوطنية، رغم علمي بأن شكواى ستذهب بدداً.

وفي زيارة أخرى صحبني صديقي جورج حجار من جوبا بالسيارة الى مناطق جبلية بلغ ارتفاعها أربعة آلاف قدم لأرى مزارع البن التي يمتلكها. ومن المعروف أن شجرة البن تنمو في المرتفعات الجبلية، وكانت تلك المزارع هي الأولى التي أقيمت بالسودان. وبعد سنوات قليلة لاحقة كان إنتاج حجار من البن في اسواق الخرطوم. وقد شيد حجار داراً واسعة وأنيقة في وسط تلك المزارع كمنتجع له هو وعائلته خارج مدينة جوبا.

في سوق جوبا كان معظم التجار من العرب الشماليين المسلمين، إلا أن أغلبية السكان داخل وحول المدينة من الأفارقة ا لسود. وكان من المناظر المألوفة أن ترى رجالاً في أواخر العقد السادس وهم يسيرون عراة أو يرتدون قطعة من القماش، ويعتمدون في غذائهم على البفرة-وهو دقيق تحمله ثمار بعض الأشجار. وهناك فاكهة المانجو الجميلة والباباى التي تغمر الأسواق ويمكن شراؤها بأسعار رخيصة للغاية. كان مدير مكتبنا في جوبا في ذلك الوقت جوزيف انجليزي قد اعتاد على أن يرسل لي كميات من هذه الفاكهة اللذيذة في الخرطوم حيث لم تكن تكلفه سوى أجرة الشحن الجوي.

كان الطريق الى بولس- المدينة القريبة من جوبا والواقعة في الكونغو البلجيكي- يمر عبر منطقة تعجّ بالأفيال. وفي احدى الرحلات اصطدمت سيّارتنا بأحد الأفيال الذي تسمّر في الطريق، إلا أنه لم تقع كارثة ومرّ الموقف بسلام، بفضل براعة السائق الجنوبي المعتاد على مثل هذه الحوادث. وفي نفس تلك المنطقة كانت هناك محمية للأفيال أقامها البلجيكيون الذين استطاعوا تدريب بعضها وإعدادها للتصدير الى حدائق الحيوان في بلدان العالم المختلفة. وفي زيارة لتلك المحمية نظموا لنا جولة في أنحائها وامتطينا بعض تلك الأفيال.

وفي بلدة بولس كنت أقيم في أحد الفنادق الذي كان يغص بكثير من البلجيكيين،

كان معظمهم من العاملين بالحكومة والبعض الآخر من رجال الأعمال تصحبهم زوجاتهم الشابات. وعلى بعد أميال قليلة من تلك البلدة قمت بزيارة مزرعة واسعة شاهدت فيها حبوب البن منشورة على الارض لتجفيفها بحرارة الشمس، كما رأيت عملية استخلاص زيت النخيل من الأشجار.

وفي احدى رحلاتي الأخيرة لمدينة جوبا كنت بصحبة مديرنا السوداني الجديد السيد مكاوي سليمان أكرت، وذلك لأقدمه الى بعض مكاتب الفروع. وعندما فرغنا من تلك الزيارة استأنفنا الرحلة الى عنتيبي، ومن هناك الى نيروبي. وعندما كنا بمدينة عنتيبي قمنا بزيارة بحيرة فكتوريا بجمالها الذي يخلب الألباب. وكانت تلك البحيرة هي أضخم مشهد للمياه العذبة أراه في حياتي. بقينا لمدة ثلاثة أيام في فندق أمريكي على شاطئ البحيرة، لم نشأ أن نفارق ذلك الجمال دون ان نرتوي منه. وقد قمنا كذلك بزيارة لشلالات البرت -أحد مصادر مياه النيل الأبيض- بمناظرها الأخاذة. في عام ١٩٧٦ كانت عنتيبي مسرحاً لعملية اختطاف طائرة الأيرباص الفرنسية وركابها اليهود من قبل (ارهابيين عرب) وممالئيهم من الألمان في المطار، بالاضافة الى الأداء المسرحي لعيدي أمين وبطولة المنقذين الاسرائيليين. وجدت هذه القصة طريقها الى عدد من الكتب. وكان القائد الاسرائيلي وبطل غارة الإنقاذ هو جوناثان نتانياهو- الوحيد الذي فقد حياته خلال هذا العمل الشجاع- شقيق بنيامين نتانياهو رئيس الحكومة الاسرائيلية الأسبق. (اليــاهو لا يكف عن الزج بتأييده الأعمــى لاســرائيل والتنويه ببطولة وانسانية اليهود، مهما كانت طبيعة الموضوع الذي يتناوله بالسرد).

وعندما وصلنا الى كمبالا دعانا السفير السوداني- الذي كان صديقا لمكاوي أكرت- لتناول طعام العشاء في داره حيث حضر عدد من المسئولين السودانيين والأصدقاء. وفي أول المساء علمت أن كابتن شريف، الملحق العسكري السوداني في كمبالا قد غادر المكان بهدوء. وفي وقت لاحق عرفت انه كانت قد وقعت بعض المناوشات بين الجيش السوداني وقوات التمرد على الحدود مع اوغندا.

وفي نيروبي، المدينة الاستوائية الجميلة بشوارعها التي تحيط بها النباتات المزهرة،

التقينا بالسير آر. أس. كامبل رئيس شركة آر. اس. كامبل- الذي كان يقوم بإمدادنا بالبن الكيني- واصطحبنا في زيارة لجبال كلمنجارو. وعلى الرغم اننا لم نتسلقه وبقينا نتطلع اليه من السفح، إلا أن ذلك المنظر المهيب مازال عالقاً بالذاكرة. وقمنا أيضاً بزيارة للحديقة الوطنية (أو المحمية) المشهورة على نطاق العالم، حيث تتجول الحيوانات الوحشية بحرية تامة. وكانت جولتنا في تلك الحديقة في سيارة تتهادى على طريق معبد نراقب من خلالها سلوك الحيوانات في تلك البرية المحمية. وبمجرد دخولنا الحديقة قفزت مجموعة من القردة فوق سطح السيارة واصطحبتنا خلال تلك الجولة. وعلى الجانبين كانت تتراءى لنا قطعان الحمر الوحشية والزراف وغيرها من أنواع الحيوانات. وقضينا ساعات ونحن نراقب عائلات الأسود ترقد تحت ظلال الأشجار. وانتظرنا طويلاً داخل السيارة حتى تخرج من مراقدها ولكنها أبت أن تفعل.

ومازلت أذكر زيارة ممتعة لمدينة الفاشر عاصمة سلطنة دارفور التي كانت مستقلة حتى عام ١٩١٦ يحكمها السلطان علي دينار الذي هزمته القوات البريطانية وألحقت سلطنته بالسودان كإحدى مديرياته. وقد قمت بزيارة قصر السلطان في الفاشر، وهو أبرز المباني في المدينة بطابقيه الاثنين. وقد أضحى في وقت لاحق منزلاً لمدير المديرية.

في عام ١٩٣٣ كنت في مهمة بمدينة الأبيض تستغرق شهرين لإدارة مكتب شركة جلاتلي أثناء غياب مديره في اجازته السنوية. وفي تلك الأثناء تلقيت برقية من الخرطوم تفيد ان المدير الاداري للشركة دي. ماكفرلين وقرينته متوجهان الى الأبيض في طريقهما لزيارة مدينة الدلنج بجبال النوبة، ويتعين عليّ أن أقوم بالترتيبات الضرورية لهذه الزيارة.

كانت جبال النوبة من المناطق المقفولة أمام التجار العرب والنفوذ الاسلامي وكان لا يسمح للزوار القادمين من الشمال بالدخول إلا بإذن خاص. لذا قمت بالاتصال هاتفيا بمفتش مركز الأبيض طالباً منه الإذن لي ولسائق السيارة اليوناني الذي اتفقت معه على أن يقلني من الأبيض الى الدلنج لمرافقة ماكفرلين.

ولدى وصولنا الى مدينة الدلنج توجهت الى منزل وكيل شركة جلاتلي السيد غفريل شامي وزوجته المدهشة- وهي من أهالي منطقة الجبال وقد تعلمت في مدارس البعثة التبشيرية المسيحية. وهناك قابلنا ممثل مفتش المركز البريطاني بتوجيهات تقضي باصطحاب ماكفرلين الى منزل المفتش لقضاء الليل هناك، ومن ثم حضور احتفالات النوبة في الصباح الباكر. ذهبوا وتركونا وحدنا لنستمتع بالعشاء الفاخر الذي أعد في منزل غفريل شامي.

ملكا.. الزواج والحياة العائلية

عاش الياهو ملكا أياماً سعيدة في السودان الذي ولد فيه وقضى الشطر الأعظم من حياته.. تزوج وأنجب وشيد داراً أنيقة وكوّن صداقات عديدة في إطار جاليته اليهودية ومع الذين ارتبطوا معه بالعمل.. يقول:

تزوجت من دورا جولدنبرج في كنيس الخرطوم في نوفمبر ١٩٣٤. كانت في العشرين وكنت في الخامسة والعشرين. كان شقيقها موريس قد تزوج من أختي راشيل قبل عامين. رأيت دورا عندما كنت في زيارة لشقيقها باسكال في القاهرة عام ١٩٣٣. كان ذلك في منزل شقيقها بيرنارد. مازلت أذكرها هي وشقيقتها ايدا وخمس فتيات أخريات كن ينفقن الساعات الطوال يستمعن للأوبرا وأسطوانات الموسيقى الكلاسيكية. تيتّمت دورا في طفولتها فضمها الى أسرته شقيقها الأكبر المتزوج باسكال صاحب المحلات الرئيسية للنظارات بالقاهرة. خرجنا معاً ورقصنا فهمتُ بها، إلا أنني لم أكن واثقاً من استعدادي للزواج وعدت الى الخرطوم.

وفي أوائل عام ١٩٣٤ جاءت دورا وشقيقتها الصغرى ايدا الى الخرطوم في زيارة لشقيقهما موريس جولدنبرج وأخذتا في التردد على النادي اليهودي الذي يلتقي فيه معظم أفراد الجالية كل مساء. كانتا محط الأنظار بأناقتهما وجاذبيتهما، فأخذ شباب اليهود يحومون حولهما مما دفعني لأن أستعجل الخطو خوفاً من ضياع دورا في خضم هذه المنافسة، فحزمت أمري وتقدمت طالباً منها الزواج. وعندما أبدت موافقتها أبلغت شقيقها ووليها باسكال جولدنبرج برغبتي فتمت الخطوبة في العاشر من يونيو قبل أيام من زيارة ناحوم سوكولوف، رئيس المنظمة الصهيونية العالمية للخرطوم حيث شاركنا سوياً في التحضيرات لهذه الزيارة.

انحدرنا أنا ودورا من خلفيات ثقافية متباينة، فهي قد تعملت في المدارس الفرنسية الكاثوليكية ومن أصول رومانية. كانت تتحدث الفرنسية والايطالية كلغتين أساسيتين، وتجهل العربية شأن كل الأوروبيين في مصر. كانت تعشق الأوبرا والموسيقى الكلاسيكية ولا تمل سماعها والحديث عنها مع صديقاتها بالزمن الطويل. أما أنا فقد كنت ما بين الثقافتين الانجليزية والعربية، اللتين لا تفقه عنهما شيئاً، كما كنت أتذوق موسيقى

الرقص الخفيف وأنغام السفارديم والأنغام العربية. ولكن الحب والشباب سرعان ما قربا الشقة واختصرا المسافات، وهكذا عشنا زواجاً سعيداً وتذوقنا مباهج الحياة في أقصى درجاتها واتسعت آفاق ثقافتنا من خلال الأسفار المتنوعة والمغامرات.

أنجبنا ثلاثة أطفال، كانت جيني الأولى قد لقيت حتفها في سن السادسة بالخرطوم عام ١٩٤٢. راحت ضحية لحادث حريق عندما كانت تحت عناية مربيتها. ظل الحزن على فقدها يغلف حياتنا لفترة طويلة من الزمن. كان طفلنا جيفري سولومون لم يبلغ الثانية.. وحين رزقنا بايفيلين بعد خمس سنوات أصبحا عزاءً لنا في ذلك المصاب. كلفت بهما دورا وأطنبت في حبها لهما، وكانت لا تطيق أن يغيبا عن عينها لحظة. ومنذ طفولتهما الباكرة كانت تتحدث اليهما بالفرنسية وشبا على التكلم بها في المنزل. وعندما درجا قليلاً أدخلناهما داراً خاصة للحضانة ثم روضة خاصة للاطفال البريطانيين تحت اشراف سيدات انجليزيات في الخرطوم، حيث تعلما اللغة الانجليزية. ومن ثم أخذا يتحدثان اليّ باللغة الانجليزية فقط ومع أمهما بالفرنسية، ومع المربيات والخدم السودانيين بالعربية التي كانا يلتقطان مفرداتها منهم.

كانت دورا تعرب دائماً عن رغبتها في تعليم طفلينا وتربيتهما على الطريقة الاوروبية. وعندما كانا طفلين كنا نأخذهما دائماً معنا الى اوروبا في العطلات الصيفية التي تستغرق من شهرين الى ثلاثة، يقضيان جزءا منها في (منازل الأطفال) بالجبال السويسرية (تماثل المعسكرات الصيفية في الولايات المتحدة). وعادة ما تكون تلك الأماكن داخل وحول فيلا سير أولون، ثم في المدارس التكميلية السويسرية داخل وحول مدينة لوزان، حيث كانا يستمتعان بالنزهات الجميلة وشتى ضروب الرياضة وشذرات من التعليم الراقي.

وعندما بلغت ايفيلين السادسة وجيفري الحادية عشرة أرسلناهما للدراسة في الصفوف الانجليزية-الفرنسية بالمدرسة الخاصة في جنيف تصحبهما والدتهما. وفي نهاية السنة الدراسية الأولى أدركنا صعوبة ذلك بالنسبة لنا ولهما في تلك السن المبكرة. أعدناهما الى الخرطوم وألحقنا ايفيلين بمدرسة الاتحاد العليا للبنات وجيفري بكلية كمبوني. وكلا المدرستين تطبقان مناهج المدارس الانجليزية وتعدان طلابهما للشهادة العامة الانجليزية (التي تماثل دبلوم المدارس العليا الامريكية).



الياهو وعائلته الصغيرة

وفي خلال ذلك العام الذي قضاه في المدرسة العليا بجنيف، بدأ جيفري في حضور دراسات دينية مع البروفيسور دانيالي بجامعة جنيف. وعندما عاد الى الخرطوم أكمل تلك الدراسات في كنيس الخرطوم عام ١٩٥٣، حيث أقمنا احتفالات بهذه المناسبة بالنادي اليهودي قدمنا خلاله أنواعاً من الطعام والشراب ورقص الجميع على أنغام الموسيقى. وقد حضر الحفل حوالي ٣٥٠ شخصاً من الجالية اليهودية وأصدقائنا من غير اليهود واستمرت الفرقة الموسيقية تعزف حتى ساعة متأخرة من الليل.

وعندما أكمل جيفري المرحلة الثانوية وأحرز شهادة أوكسفورد بعثنا بهما معاً الى انجلترا لمواصلة تعليمهما. وقد تم تسجيل ايفيلين في مدرسة ويكومب أبي، احدى أرقى المدارس الانجليزية الداخلية الخاصة حيث كانت تحيط بها فتيات الطبقة الأرستقراطية الانجليزية وبنات النبلاء. وذهب جيفري الى كلية ويتنجهام في برايتون حيث التقى بعدد من أبناء العائلات اليهودية البارزة وعقد علاقات صداقة معهم. ومن بين هذه العائلات سفرا وجمال وزيلكا فضلاً عن طلاب سعوديين ألحقوا بهذه الكلية التي لا تقدم لحم الخنزير في وجباتها. وفي خلال عطلاتهما المدرسية الطويلة والقصيرة كان جيفري وايفيلين يعودان الى الخرطوم أو يلحقان بنا خلال جولاتنا

الأوروبية في عطلتنا الصيفية.
ولتوفير الدراسة في الخارج كان من الضروري تحويل العملة السودانية المحلية الى العملات الأوروبية. وقد ساعدني كثيرا صديقي الحميم- خريج جامعة أوكسفورد- السيد مأمون بحيري زميلي في عضوية نادي الروتاتري بالخرطوم والمحافظ الأسبق لبنك السودان. وكان وقتذاك وزيراً للمالية فلم يتوان في تقديم العون والتسهيلات اللازمة لتحويل مبالغ المصروفات المدرسية وتكاليف رحلاتنا أنا وزوجتي الى الخارج. وكان غيري من السودانيين يحظون بنفس المعاملة التي تمكن ابناءهم من الاستمرار في الدراسة بالخارج.
وعندما أكمل جيفري دراسته في انجلترا بعثنا به هو وشقيقته الى جنيف ليلتحق بكلية الطب في جامعة جنيف، وتكمل ايفيلين دراستها الثانوية في المدرسة العليا بجنيف. وفي تلك الفترة اشتريت شقة مكونة من ست غرف في العاصمة السويسرية حيث جاءت دورا لتعيش الى جانب طفليهما وهما يواصلان الدراسة. وقد اعتدنا على أن نقضي عطلة عيد الفصح بمنزلنا في الخرطوم وعطلات الأعياد اليهودية الأخرى بمنزلنا في جنيف. وقد أصبحنا أعضاء في (المنزل اليهودي)(ميسون جويف) وكنيس السفارديم في جنيف. وهناك أيضاً استأنفنا صداقاتنا وعلاقاتنا الاجتماعية مع يهود الخرطوم الذين استقروا في سويسرا مثل عائلتي تمام والعيني.
خلال السنوات الأولى لزواجنا كنا نقضي عطلاتنا السنوية في القاهرة والاسكندرية ولبنان. كانت الرحلة الى العاصمة المصرية بالقطار والباخرة رائعة وممتعة. ثم لم تلبث أن اصبحت بالطائرة المائية التي تهبط في النيل ثم بالطائرة العادية التي تقلع وتهبط في المطارات. وكنا نتجول في القاهرة ونغشى الأماكن والمحال المعروفة كمجلات جروبي للحلويات والمشروبات والأطعمة الخفيفة ومحلات شارع الألفي، وبالطبع الأهرامات وأبو الهول. كما كنا نزور شقيقتي فورتيون جودلرنج وباسكال جولدنبرج- شقيق دورا- وعائلتيهما. وكنا نستمتع بالبلاجات بالاسكندرية في ستانلي بك وسيدي بشر، بمطاعمها وفنادقها والجولات المسائية بالحنطور على طول الكورنيش.
كانت آخر زيارة لنا لمصر في عام ١٩٥١ حين بدأ الجو يتغير وتعالت اللهجة المعادية لليهود. وفي ذلك العام واصلنا رحلتنا على متن سفينة تابعة للخطوط البحرية كاسل

يونيون لاين الى جنوا ثم مارسيليا فروما ومناطق أخرى أوروبية. وفي الأعوام التالية أخذنا نتفادى مصر ونسافر جواً الى لندن أو روما مباشرة لنبدأ عطلاتنا في مختلف الأنحاء الأوروبية مثل الريفيرا الفرنسية.

الحياة في الخرطوم

نتيجة للفرص التي توفرت لي والانجازات التي حققتها بالسودان استطعنا أن نعيش حياة الشريحة العليا للطبقة الوسطى بالخرطوم. وعلى الرغم من الظروف السياسية التي أحاطت باليهود والعرب واسرائيل وغيرت مساراتنا إلا أنني مازلت أشعر بحب عميق للسودان وأهله وبعاطفة حارة للسنوات التي شهدت نشأتنا وحياتنا هناك وللأصدقاء العديدين من السودانيين وغيرهم.

عشنا في فيلا من طابقين تم تشييدها وفقاً لمواصفاتنا في عام ١٩٤٢ تحت اشراف المهندس المعماري اليوناني ستيفانيدس الذي يعود اليه الفضل في بناء عدد من المنازل الجميلة في العاصمة السودانية. وكان منزلنا شأن معظم المنازل الحديثة التي تم تشييدها خلال سنوات الأربعين والخمسين من القرن الماضي يقع في منطقة الخرطوم شرق. وفي أوقات لاحقة قامت مبانٍ جديدة في امتدادين جديدين أطلق عليها (الخرطوم-١) و (الخرطوم-٢).

وفي ليالي الصيف، الذي يستغرق معظم أيام السنة، كنا ننام على السطح المفتوح للطابق الثاني، وكان يحيط به حائط قصير تزينه نباتات ذات ألوان متعددة. وكان قريباً من مداخل غرف النوم. وبعد مغيب الشمس بقليل في حوالي الساعة السادسة والنصف كان يهب نسيم صحراوي جاف عليل ولطيف، كنا نفضله على النوم في الغرف المزودة بمراوح السقف ومكيفات الهواء. وكان ابني جيفري مغرماً بالفلك كثير التطلع لتلك السماء الصافية التي ترصعها النجوم المتلألئة في جوٍ خالٍ من التلوث.

كانت درجة الحرارة أقل بعشر درجات في تلك المرجة المخضرة المحاطة بالنباتات المتسلقة من الفرندات التي تحيط بالمنزل. وفي ذلك المكان الذي زودناه بالكراسي الوثيرة والمعدات الكهربائية الضرورية كنا نقضي جل أماسينا ونستقبل الأصدقاء. وعندما كنا نقيم حفلات الكوكتيل والعشاء كنا نستخدم الحديقة والفرندات وصالة الضيوف والطعام التي يبلغ طولها خمسة وأربعين قدماً. وكان الصالون مزوداً

بمراوح السقف وأجهزة التبريد على النوافد المشرعة لتأتي بالهواء البارد النقي. وخلال الحفلات وبعد استقبال الضيوف كنا نأخذ الطفلين الى سريريهما في السطوح، ويظلان متيقظين الى وقت متأخر من الليل يتطلعان الى الضيوف ويهرعان الى سريريهما يتظاهران بالنوم. وكنا لا نفتأ- أنا ووالدتهما- نتفقدهما من حين لآخر. وفي الشتاء، الذي عادة ما يمتد من منتصف ديسمبر وحتى نهاية فبراير، يكون الطقس رائعاً وجافاً، وأحياناً يكون بارداً الى الدرجة التي تدعو لارتداء بلوفر أو جاكيت، ولكنه مناسب لإقامة الحفلات المسائية فوق بساط النجيلة الأخضر أو الرقص في الفناء المفتوح. وعادة ما يكون هذا الموسم مزدحماً بالحفلات السنوية في الأندية المختلفة بمناسبة أعياد الكريسماس ورأس السنة وحفلات الكوكتيل التي تقيمها السفارات والبنوك والشركات والأصدقاء.



أمسيات الجالية اليهودية في الخرطوم

وفي خلال ذلك الموسم الاجتماعي كنا نتلقى كثيرا من الدعوات لحضور حفلات من السودانيين والبريطانيين والجاليات الأخرى وأصدقاء العمل. ومن بين تلك الدعوات التي تستحق الوصف كانت الدعوة الموجهة من السيد مصطفى أبوالعلا بمناسبة زواج ابنه- الذي تخرّج في الجامعات البريطانية- من أحدى الشابات

الطبيبات. استغرقت الاحتفالات ثلاث ليالٍ، كانت من بينها تلك الليلة- التي حضرتها أنا وزوجتي- وخصصت لأصدقاء العائلة من الأوروبيين وقريناتهم. وقد أقيم الحفل في حدائق أبوالعلا وداره الفخمة بأم درمان. وبعد تناول طعام العشاء، الذي تم تقديمه بأعلى المستويات الأوروبية الراقية، وجهت الدعوة لزوجاتنا لحضور حفل الرقص السوداني في جناح الحريم. وعادة في هذه الحفلات التقليدية ما تقدم العروس نفسها رقصات متميزة وترتدي زياً خاصاً. والرجل الوحيد المسموح له بحضور ذلك الرقص الخاص هو العريس.

خرجت زوجتي دورا والسيدات الأخريات اللائي لم يشاهدن مثل هذه التقاليد من قبل من الحفل مبهورات يحملن من الذكريات ما لا يمكن أن ينساه المرء طول حياته. أما نحن الرجال الذين لم يسعدنا الحظ برؤية ما جرى في جناح السيدات فقد ظللنا نتجاذب أطراف الحديث.



مصطفى أبو العلا يستقبل الضيوف وإلى اليمين يبدو الياهو

وفي إحدى أمسيات أيام الفرح تم عقد القران الذي عادة ما يحضره الرجال وفيه يتم كتب الكتاب الذي يشهده وكيلا العروسين وتتلى فيه آيات من القرآن الكريم. ويتلو ذلك تقديم طعام العشاء للضيوف، ومن ثم يقام الحفل. وفي الليلة الثالثة

تجتمع النساء السودانيات ويحتفلن بأداء الأغاني والرقص وحدهن.

في الفترة التي سبقت ظهور التلفزيون كنا نحجز مقصورة مرتين في الاسبوع لنا ولطفلينا في اثنتين من دور السينما واسعتين ومفتوحتين- غير مسقوفتين- كانت سينما النيل الأزرق تقع على شاطئ النيل الأزرق، بعد أن تم تحويلها من سينما للجيش البريطاني. أما سينما كلوزيوم فكانت تقع في شارع فيكتوريا- القصر الآن- في الموقع الذي كان يحتله نادي ماكابي الرياضي. كانت دور السينما بفناءاتها الواسعة والمقصورات التي تضم الكراسي ومناضد صغيرة- (اللوج) مرصوصة في الخلف بينما تتناثر الكراسي والكنبات في المساحات الأمامية، تقدم أحدث الأفلام الغربية- امريكية وغربية. وكان يسبق عرض تلك الأفلام نشرة إخبارية مصورة. وكنا أحياناً نتوجه الى السينما الوطنية التي تعرض أفلاماً مصرية، البعض منها يكون مُسلياً.

وفي أوقات أخرى كنا نقضي الأمسيات في النادي اليهودي حيث نلتقي بأصدقائنا اليهود أو نتبادل الزيارات في منازلنا. كما كنا نخرج مع اصدقائنا لتناول طعام العشاء في الفندق الكبير (جراند اوتيل) أو في أحد المطاعم الأوروبية. كما كان يحلو لنا أحياناً أن نقضي فترة ما بعد الظهيرة جالسين في فرندة الفندق الكبير لنواجه النيل الأزرق. وكان طفلانا يفضلان الذهاب الى حدائق المقرن بأشجارها الضخمة الوريفة عند ملتقى النيلين الأبيض والأزرق، فيستمتعان باللعب على طول شاطئ النيل الأزرق مع أصدقائهما ويتناول أطباق الفول والفلافل.

كانت حفلات الكوكتيل والعشاء التي نقيمها متميزة وذات طابع خصوصي، فطباخنا كان ذا خبرة واسعة في الطبخ بالاسلوب الأوروبي ويجيد تقديم أطباق فرنسية وأوروبية فاخرة. وقبل أن يلتحق بخدمتنا تدرب وعمل لدى المدير الانجليزي للبنك الوطني المصري بالاسكندرية. كان طفلانا يحبانه ويدعوانه بعم حسن، وكان يدللهما حين يعودان في عطلتهما الصيفية من أوروبا. وقد اعتاد على أن يستقبلهما في مطار الخرطوم عند عودتهما في الساعة الثانية صباحاً، موعد وصول الرحلات الجوية الدولية عندما تكون درجة الحرارة في أدنى درجاتها. وكان

هو والسفرجي من البرابرة- النوبيين الذين يتحدثون لغة خاصة الى جانب معرفتهم بالعربية. وكانت زوجتي أيضاً طباخة ممتازة وتساهم بطريقتها الخاصة في تقديم أطباق لذيذة، إلا أنني كنت أفضل دائماً أن تبقى بعيداً عن حرارة المطبخ رغم وجود المراوح.

وفي خلال عامي ١٩٣٤-١٩٣٥، عندما كنا حديثي عهد بالزواج سكنا في منزل من طابق واحد، وكان لدينا طباخ يعمل أيضاً كخادم عام وخادمة تساعد زوجتي الشابة وتؤنس وحدتها. وقد أصبحت فيما بعد أول مربية لطفلينا. وكان ذلك المنزل مجاوراً لسكن جوزيف تمام وأطفاله في ذلك الوقت- ليون (الموجود حاليا في لندن) والبرت وغابرييل (في جنيف) وابنته رينيه (زوجة نسيم قاوون). وكان يفصل المنزلين حائط قصير، كنا نتبادل من فوقه أنا وجوزيف الحديث وأخبار اليوم.

تمتد شهور الصيف من ابريل حتى يونيو وربما تبلغ درجة الحرارة فيها ١٠٠ درجة فهرنهايت وأحياناً ١١٠ الى ١١٥ درجة، الأمر الذي يجعل الطقس غير مريح ولكنه محتمل. ولحسن الحظ لا تستقر درجة الحرارة على ذلك المدى الأقصى لأيام عديدة متتالية. وتصحب تلك الحرارة عواصف ترابية هوجاء (الهبوب) وتستمر لمدة ساعات تشيع ظلاماً يحيل النهار الى ليل وتتعذر خلالها الرؤية. وتشتد العواصف بقوة كافية تزلزل توازن الانسان وتقذف بالأشياء بعيداً، كما تقتحم ذرات التراب العيون وفتحات الأنوف والغرف المغلقة. وعندما تهب تلك العواصف نقوم بإغلاق الأبواب والنوافذ ونبقى تحت رحمة مراوح السقف. لذا كنا نطلب عطلتنا السنوية في مايو ويونيو لنهرب من الحر القائظ والهبوب الى الجبال السويسرية حيث برودة الطقس والخضرة المنتشرة أو الى شواطئ كان ونيس بفرنسا.

وفي السودان كانت أركويت منتجعاً مثالياً لموقعها الذي يبلغ ارتفاعه ثلاثة آلاف قدم. وقد شيدت مصلحة السكة الحديد السودانية فندقاً صغيراً يتميز بجميع خدمات الجراند أوتيل، وتوفر رحلة تستغرق عشرة أيام في ذلك المنتجع تتضمن غرفة نوم في قطاراتها من الخرطوم بأسعار معتدلة.

وقد صحبت زوجتي وطفلي جيفري الذي كان في السادسة من عمره مرة الى ذلك المكان وسط مجموعة من الأصدقاء، من بينهم الدكتور جون بابادام وعائلته. وكان السيد عبدالرحمن المهدي بأركويت في ذلك الصيف. وعندما سمع بوجود الدكتور بابادام- إبن أحد اليونانيين الذين كانوا بالسودان إبان المهدية- وجه لنا الدعوة نحن وزوجاتنا لحفل شاي. وحسب التقاليد المرعية فقد استقبلنا أحد ملازميه. وعندما أطل علينا السيد عبدالرحمن نهضنا وقوفاً، ومن ثم قضينا وقتاً طيباً خلال هذه الدعوة الكريمة.

وفي السنوات التي سبقت عام ١٩٣٩ كنا نقضي جزءاً من عطلاتنا بالمناطق الجبلية اللبنانية، في عاليه وضهر الشوير وبحمدون، وفي الأربعينات كنا نتوجه الى شواطئ الاسكندرية وبلاجاتها الجميلة، الابراهيمية وستانلي بك، وسيدي بشر. وأستطيع أن أجزم صادقاً أنني لم أر في حياتي مثل شواطئ الاسكندرية التي تمتد أميالاً وأميالاً برمالها البيضاء الناصعة. ماذا حدث الآن لتلك الشواطئ الجميلة؟ للأسف لا أدري.

كانت الأمطار الموسمية تخفف حرارة الجو في يوليو واغسطس بالخرطوم ويصبح منعشاً ولطيفاً. وفي الفترة ما بين منتصف أغسطس وسبتمبر وأحياناً أكتوبر تعود الحرارة مجدداً تصحبها الرطوبة بسبب هطول الأمطار. وفي هذه الفترة تنتشر الحشرات والناموس ويزحف النمتي من شاطئ النهر- وهي حشرات دقيقة طائرة يجتذبها الضوء وتسبب إزعاجاً حقيقياً ومن الصعوبة تفاديها. وكان علينا أن نتذرع بالصبر حتى نوفمبر ليتحسن الطقس قبيل حلول فصل الشتاء الجميل.

حياة ملكا في الولايات المتحدة وفرنسا

في الخامس من يناير ١٩٦٦ لفظت زوجتي العزيزة دورا أنفاسها بعد صراع مع مرض السرطان استغرق عامين في كل من لندن وجنيف. وقد تم دفنها في يوم ملبد بالغيوم بالمقبرة اليهودية في العاصمة السويسرية، والتي كانت من ناحية واقعية تقع في قرية فيرير الفرنسية عند الحدود مع سويسرا. وذلك لأن القوانين السويسرية تمنع الفصل بين المقابر على أساس ديني أو دفن الجثة بصورة مباشرة في التراب، كما ينص القانون اليهودي. ذلك كما كان الذبح على الطريقة اليهودية غير مسموح به في جنيف. لذا كنا نطلب لحم الكُشر من بازل الفرنسية او من زيوريخ. وفي السنوات الأخيرة أخذ لحم الكُشر يأتي الى جنيف عبر الحدود الفرنسية.

بعد وفاة دورا تجدد حلم حياتنا بالرحيل الى الولايات المتحدة. وكان يتعين علينا الإسراع في تنفيذ هذا القرار لأن جوازات سفرنا السودانية شارفت مددها على الانتهاء. ولم يكن يتبقى من مدة جواز سفر ايفيلين سوى ستة أشهر وليس هناك أمل في موافقة السلطات السودانية على تجديده. ولكن القنصلية الأمريكية في جنيف أبدت تعاطفاً واستعداداً للحل. وقامت باجراء اللازم واستخراج تأشيرات الهجرة لنا- نحن الثلاثة- الأمر الذي ساعدنا على التوجه الى الولايات المتحدة قبل انتهاء مدة جواز سفر ايفيلين. وكان يتعين عليها أن تعود الى جنيف حاملة جوازاً امريكياً مؤقتاً (جرين كارد) لإكمال دراساتها والحصول على درجتها العلمية من الجامعة في الاقتصاد والعلوم السياسية. وفي الولايات المتحدة استقبلنا اخوتي سام وديفيد واليجرا ساسون وعائلاتهم، الذين هاجروا قبلنا منذ عشر سنوات. وقد تنافسوا في اصطحابنا الى منازلهم بنيوجيرسي وساعدونا في كل ما كنا نحتاج اليه.

وفي خلال الاسابيع الثلاثة التي قضيناها في نيوجيرسي ونيويورك حصلنا على البطاقات الخضراء، واستأجرت شقة مكونة من ثلاث غرف في الطابق السابع عشر لمبنى مديترينيان تاورز الذي شيد حديثاً في فورت لي بنيوجيرسي والمطل على

المنظر الأخاذ لجسر جورج واشنطن وجزيرة مانهاتن. كما استأجرت مكتباً في الطابق الثاني عشر لمبنى مكاتب الأعمال الواقع في الجادة الخامسة- ٥٨٠ في ركن الشارع ٤٧ في مانهاتن. وفي تلك الأيام ايضا قمت بتسجيل شركتي الامريكية ((مؤسسة ملكا موباسو)) بنيويورك بمشاركة موشي باروخ سليمان. وذلك بمساعدة وخدمات المحامي آرثر ليفيت الذي قدمني اليه شقيقي سام.

وبعودتنا نحن الثلاثة الى الولايات المتحدة في اغسطس ١٩٦٦ كمقيمين بصورة دائمة كان منزلنا ومكتبي في مانهاتن جاهزين. توجه جيفري الى مستشفى جبل سيناء في نيويورك، الذي تم قبوله فيه قبيل وصوله.

وفي خلال ثلاث سنوات من دخولنا الولايات المتحدة كانت حياتنا قد اتخذت مساراً آخر. تزوج ابني جيفري من سوزان جيلفاند، إبنة الدكتور والسيدة موريس جيلفاند من فيلاديلفيا في نوفمبر ١٩٦٧. وبعد سبعة أشهر التحق بالجيش الامريكي في ذروة الحرب الفيتنامية وأصبح الميجور جيفري ملكا نائب رئيس قسم العظام في المستشفى العام (رقم١٠٦) بالجيش الامريكي في اليابان، حيث يتم اخلاء الجرحى ذوي الاصابات البالغة اليه من ساحات المعارك بفيتنام.

أما ايفيلين فقد حصلت على أول وظيفة لها في رابطة الأمم المتحدة للولايات المتحدة في نيويورك كمساعدة برامج، ثم انضمت لشركة ((امريكان اكسبريس)) كمراسلة بقسم التحويلات الأجنبية. وفي عام ١٩٦٩ انضمت الى شيس مانهاتن بانك، إن. إيه. في نيويورك وعقب دورات تدريبية عالية ومكثفة صعدت في السلم الوظيفي للبنك من قسم السياسة الإئتمانية لتصبح مسؤولة الإئتمان والتسويق للمناطق الامريكية. وفي عام ١٩٨٢ أصبحت نائبة الرئيس لقسم العمليات المصرفية الدولية، مسئولة عن ادارة الموجودات العالمية للعملاء الأوروبيين والآسيويين والكنديين والكاريبيين. وفي عام ١٩٧٤ تزوجت من ديفيد كلين، وكان يعمل وقتذاك في شركة محاسبة عالمية. وهو الآن المدير المالي والمسؤول بكلية سارا لورنس كوليدج بنيويورك. ومنذ يناير ١٩٨٨ أصبحت ايفيلين كلين نائبة رئيس في البنك الوطني بنيويورك مسؤولة عن العمليات المصرفية الخاصة على نطاق اوروبا

والشرق الأقصى، اعترافاً بقدراتها المهنية المتميزة. وفي نفس الوقت قمت بتصفية شراكتي في مؤسسة ملكا موياسو بنيويورك والتحقت بوظيفة بشركة للمعادن والكيماويات كمدير للمبيعات الصادرة في قسم الصلب في نيويورك مستفيداً من خبرتي في مشتريات الحديد الصلب التي اكتسبتها بالسودان. وفي تلك الشركة- فيليب براذورس- التقيت برئيسها ومؤسسها ((اليهودي المحسن)) لودويج جيسلسون، الذي اعتبرني أحد خلصائه المقربين. وبسلوكه اليهودي الجاد في المكتب والعمل وبزعامته في كل الجهود اليهودية التي يبذلها في الولايات المتحدة واسرائيل، قدم لي نموذجاً جديراً بالإقتداء. وقد هلك بالقدس في مستشفى شعار زيديك الذي أسسه وقدم له الدعم مثلما قدم الدعم لجامعة ياشيفا بنيويورك وغيرها من المؤسسات العديدة في الولايات المتحدة واسرائيل.

حياة ملكا في فرنسا

في عام ١٩٧٣ تقاعدت من وظيفتي في شركة فيليب براذورس وتوجهت الى باريس حيث تزوجت في ديسمبر من نفس العام زوجتي الحالية بيرثا وأسست مكتباً لي هناك باسم شركة ملكا التجارية. بيرثا كانت أرملة صديقي في السودان سليمان شاوول الذي هلك بمرض السرطان في أثينا عام ١٩٦٨، بعد عامين من هلاك زوجتي دورا بنفس المرض في جنيف. استقبل أشقائي وشقيقاتي بيرثا -التي ندعوها تحبباً بإسم بتينا- استقبالاً حاراً حيث كانوا أصدقاء لها في السودان. كما فعل ذلك إبناي اللذان كانا يعرفانها منذ طفولتهما بالخرطوم. أما أحفادي فقد اعتبروها جدة لهما، فأحبتهما وأخذت تدللهما مثلما أفعل أنا. وقد وجدنا أنا وبتينا في زواجنا حياة وسعادة جديدتين. وقد جددنا معاً حياتينا وروحينا وآمالنا. استمرت هي في عملها بباريس في مساعدة اليهود اللاجئين من مصر ولبنان وسوريا لبناء حياة جديدة في فرنسا، ومساعدة اليهود الفقراء للنهوض من كبوتهم، وهم من العجزة الذين يحتاجون للراحة والعناية بمنازلهم اليهودية في مختلف أنحاء فرنسا. أسست شركتي في ريو أمستردام في باريس، وسكنا في شقتها التي اشترتها قبل عشر سنوات، والواقعة في ضاحية بولون- بيلانكو قريباً من اختها الفرنسية وبناتها.

انضممت لكنيس دي بولون، الذي قام بتشييده في عام ١٩١٢ البارون ادموند دي روتشيلد (١٨٥٤-١٩٣٤)، لاستخدامه الشخصي والمصلين اليهود من ضاحية بولون- بيلانكو، وكان قد كلف المعماري الايطالي المشهور وقتذاك عمانويل- إليزيه بونتريمولي (٥٦٨١-٦٥٩١) بتصميمه وتشييده. وقد جاء بناؤه صرحاً جميلاً يواجه دار البارون وحدائق واسعة عبر الشارع. ومنذ أن فتح أبوابه لعامة المصلين اليهود أخذ يعرف بإسم روتشيلد. والكنيس واسع يستقبل أربعمائة شخص، وبشرفات تقليدية تحيط بالطابق الثاني وتواجه الهيكل مخصصة للنساء. ويغص الكنيس على سعته بالمصلين اليهود في معظم أيام السبت. وفي النصف الأول من

القرن العشرين تنازل البارون روتشيلد عن الكنيس للمجلس الكنسي في باريس ليستخدمه عامة المصلين من اليهود من ضاحية بولون- بيلانكو، ومعظمهم الآن من يهود الجزائر والمغرب وأقلية من يهود الألزاس. والتقيت هناك بصديقي كلود بلوخ الذي كان رئيس المصلين للضاحية ومحفل بناى بريث دي فرانس في باريس. وقد انضممت على الفور للمحفل وواصلت مشاركتي في نشاطاته من أجل الشعب اليهودي.

لم تلبث أن اتسعت أعمال شركة ملكا التجارية بنشاطها في الصادرات الفرنسية والأوروبية الى السودان ومعظمها من خلال شركة أريزونا التجارية لصاحبها عزت سامي زاخاري، زميلي في شركة جلاتلي بالخرطوم. وكانت تلك الصادرات من إنتاج شركات فرنسية كبرى المواد البلاستيكية الخام والألمنيوم والحديد الصلب. ذلك بالاضافة الى الاسمنت من اسبانيا والخميرة من اليونان وفرنسا وغيرهما من السلع من ألمانيا وفرنسا وايطاليا.

وعندما كنا في باريس استمتعنا بالعلاقات مع عائلة بتينا الفرنسية ومع الأصدقاء القدامى والجدد بين فرنسا ومصر والسودان. واشترينا سيارة بيجو فرنسية كنا نستخدمها في عطلات نهاية الاسبوع للتجول في مختلف أنحاء فرنسا، فضلاً عن زياراتنا للندن وبلجيكا وسويسرا. وكنا نسافر مرة في السنة الى الولايات المتحدة في زيارة تستغرق شهراً نسعد فيها بلقاء العائلة والأصدقاء وابنيّ وعائلتيهما، ايفيلين في وايت بلينس بنيويورك، وجيفري في فينا آند مكلين بفرجينيا. وكنا نقضي الاسبوع أو العشرة أيام الأخيرة في احد المنتجعات الامريكية مثل هاواي وكاليفورنيا وشواطئ فرجينيا. وفي عام ١٩٨٠ قررنا العودة الى الولايات المتحدة لنكون قريبين من ولدينا الأمريكيين وعائلتيهما. تركت بتينا وظيفتها في كوجاسور، وقمت أنا بتصفية شركة ملكا التجارية في باريس. وفي سبتمبر ١٨٩١ عدنا للاستقرار في أمريكا حيث دخلت بتينا كمهاجرة وحصلت على الجنسية الامريكية خلال ثلاث سنوات. اشتريت شقة في وايت بلينس على مسافة خمس عشرة دقيقة من منزل ابنتي ايفيلين بالسيارة وست ساعات بالسيارة من جيفري في ضواحي واشنطن

بشمال فرجينيا، وعلى بعد ساعة من مساكن أشقائي وشقيقاتي في نيوجيرس.
وفي خلال الشهر الأول من وصولنا الى وايت بلينس انضممت لمعبد اسرائيل ووحدة بناى بريث في وايت بلينس لتأكيد هويتنا اليهودية وسط الجالية لالتزامنا بالقوانين والتقاليد اليهودية. وفي بناى بريث استأنفت حياتي المرتبطة بالمبادئ وخدمة الشعب اليهودي وقضاياه ودعم اسرائيل. وهذا هو السبيل الذي اخترته لنفسي منذ خدمتي لمحفل بناى بريث في الخرطوم منذ عام ١٩٣٤ وحتى عام ١٩٥٠ وفي فرنسا منذ عام ١٩٧٣ وحتى عام ١٩٨١، وفي الولايات المتحدة منذ عام ١٩٨١ وحتى اليوم.
وفي عام ١٩٨٦ تم اختياري رئيساً لوحدة بناى-بريث في وايت بلينس لفترة عامين فقمت بتفعيله ومضاعفة نشاطه واجتماعاته العامة وتشجيع الشباب اليهود لاكتساب العضوية وتأكيد تجديده واستمراره. وفي عام ١٩٨٨ أقمت احتفالاً بمناسبة الذكرى الأربعين لإنشاء محفل وايت بلينس رقم ١٧٤٩ (أصبح الوحدة رقم ٥٢٤٩- في وقت لاحق) بتكريم عشرة من رؤسائه امتدت فتراتهم من ١٩٥٩ الى ١٩٨٨، واثنين من أعضائه ظلا في خدمته منذ تأسيسه في عام ١٩٤٨. وقدمت لكل واحد منهما تمثالا نصفياً لسيدنا موسى صانع شرائعنا ومحررنا.
وعلى الرغم من مشاكل وهواجس الهجرة من بلد عربي واعادة التوطين، والتي نحّيتها جانباً، بدأت أستمتع بالحرية الدينية والمساواة في الحقوق والفرص وحرية التعبير السياسي، التي هي غالية وعزيزة للذين لم يستمتعوا بها من قبل.
بدأت أنضم للمنظمات المعنية بالقضايا اليهودية ودعم اسرائيل، مثل منظمة ويستشيستر اليهودي وعملت في لجنة العمل الاسرائيلي التابعة لها. كما أصبحت عضواً في لجنة العمل السياسي الاسرائيلي الامريكية وشاركت في المناقشات والحملات لحث أعضاء الكونجرس الأمريكي لدعم وتعزيز العلاقات الاستراتيجية والعسكرية والمساعدات الاقتصادية لاسرائيل، ذلك بالاضافة الى ضمانات القروض لتسهيل إقامة المهاجرين اليهود القادمين من دول الاتحاد السوفييتي السابق ومن اثيوبيا الى اسرائيل.
وقمت أيضاً بتسجيل اسمي في الدورات المخصصة للدراسات اليهودية في سوني،

بيرشيس المجاورة حيث تشرفت بمعرفة البروفيسورة روبرتا باركان منسقة برامج الدراسات اليهودية بالجامعة والتي تتلمذت على يديها. ومن خلال ذلك تطورت معارفي في الأدب اليهودي العبري والتاريخ وناقشت العديد من المشاكل اليهودية القائمة. وأصبح لدي تقدير كبير شأن الجالية اليهودية لهذه السيدة التي تشارك في جميع أوجه النشاط اليهودي في المنطقة وتساعد في برامج بناى-بريث لمصلحة طلاب الكلية اليهودية. وقد وجدت فيها صديقاً ومعلماً، ومن خلال صفوفها الدراسية اكتسبت عدداً من الصداقات في وسط الشباب والكهول.

زيارات ملكا لإسرائيل

ومرة أخرى في الولايات المتحدة استأنفت زياراتي المنتظمة لاسرائيل. وفي عام ١٩٦٧ بعد عام من هجرتنا توجهت جواً الى اسرائيل تصحبني ابنتي ايفيلين ومن ثم أصبحت رحلاتي الى هناك شبه سنوية. وقبل ذلك كانت آخر مرة زرت فيها اسرائيل من السودان عام ١٩٥١، حين كان السفر من جميع الدول العربية الى اسرائيل ممنوعاً. إلا أن أولى زياراتي الى فلسطين كانت عام ١٩٢٨ عندما كنت في التاسعة عشرة حين أقنعني والدي في أول عطلة سنوية لي في شركة جلاتلي تستغرق شهرين بالحج الى الأرض المقدسة وزيارة أخته عالية في بلدة طبرية.

سافرت بالقطار من الخرطوم في الدرجة الثانية (التي لم تكن مريحة بالقدر المطلوب) في رحلة استغرقت خمسة أيام بالسكة الحديد والباخرة النيلية الى فلسطين عبر القنطرة، والعريش فرفح الى القدس. وفي القدس كان يتعين علي أن أذهب وأعبّر عن احترامي وأقدم تحيات والدي للحاخام أوزيل بن-زيون مير، الحاخام الأكبر لتل أبيب، والذي أصبح الحاخام الأكبر لاسرائيل. وعلى الرغم مما أحسست به من رهبة إلا أنه جعلني أشعر بالارتياح.

وفي تل أبيب انضممت لمجموعة من الشباب يقودهم رجل شاب يدعى أبراهام الذي أوصاني بلقائه صهر له يدعى اسرائيل مولر في الخرطوم. ضمني أبراهام لمجموعة شباب يهدوي من الجنسين، يماثلونني في السن، كنت أقوم معهم في مساء كل يوم بجولات (النقاط الليلية) لتل أبيب. وفي أوقات لاحقة استمرت المراسلات لفترة طويلة بيني وبين أحد يهود الصابرا ويدعى شوشانا وفتاة من مواليد ليتوانيا تُدعى ريفكا.

وفي حيفا، اكتشفت منطقة (كارمل آند هدر هاركامل) بملاهيها الليلية. وفي احدى الأمسيات غامرت بالذهاب لمشاهدة الرقص الشرقي والمغنيات في ملهى ليلي عربي يقع على شاطئ البحر حيث قضيت وقتاً طويلاً دون أن أتعرض لأذى.

للوصول الى طبرية استقليت سيارة أجرة مشتركة ودفعت عشرة قروش لقضاء ليلة

في فندق قديم مبني بالحجر الفلسطيني على ساحل بحيرة طبرية. وفي خلال احدى زياراتي اللاحقة بحثت عنه وعثرت عليه في النهاية مخفياً بين الأشجار وتحول الى مطعم وحانة.

وفي طبرية اصطحبوني الى صلاة الصباح يوم السبت في الكنيس الكبير حيث قدموني الى الحاخام رافائيل بيباس صديق وزميل والدي منذ أيامهما بالمغرب. أجلسني على مقعده الخشبي وأعطاني الفرصة لأقرأ من التوراة خلال الصلاة. وبعد انتهاء الصلاة اصطحبوني الى منزل عمتي عالية ملكا في طبرية القديمة حيث وجدت بانتظاري حوالي ثلاثين شخصاً من المعارف والأقارب لرؤية والتعرف على إبن الحاخام سولومون ملكا. جاء سالم إبن عمتي عالية بدمجانة من مشروب العَرق وقضينا وقتاً طيباً رغم أني لم أشاهد معظمهم مرة أخرى منذ تلك السانحة. وبعد الظهر توجهنا الى طبرية الحديثة حيث تسكن بنت عمتي راشيل باتان ذات الذكاء والجاذبية. وفي المساء اصطحبوني هي وزوجها واثنان من أبنائها الى مستوطنة كريات شامويل التي تم الشروع في بنائها كضاحية جميلة في المرتفعات الصخرية لطبرية القديمة. وكما يحدث دائماً للناس الطيبين هلكت راشيل بسبب مرض السرطان ولم يتجاوز عمرها الخمسين بكثير.

وفي خلال رحلتي الأخيرة من السودان في عام ١٩٥١، كنت في مهمة عمل الى مدينة حيفا. وقد استضافني وكلاء العمل في حيفا شركة (ستيل براذورس) في الفرنيش كارمل بمنزل المدير وأطنبوا في إكرامي بالنادي البريطاني. وفي إحدى الأمسيات انتهزت فرصة لزيارة إبنة أختي الجميلة جيزيل، كريمة شقيقتي فورتيون جولدرنج. كانت هي وزوجها ديفيد تويتا قد هربا من مصر الى اسرائيل وتم إسكانهما بمعسكر استيعاب ضخم خارج حيفا. كان المكان واسعاً فعثرت عليهما بصعوبة بالغة في كوخ خشبي إلا أنهما كانا سعيدين لمغادرتهما مصر ووصولهما لاسرائيل. ولما كنت أعرف خبرة زوج جيزيل في مسائل الشحن البحري كتبت له توصية الى شركة شيمين أويل ميلز في حيفا عميلنا وأكبر منتج اسرائيلي للزيوت النباتية والتي كنت أصدر لها بذور القطن من السودان. ولم يلبث أن أوجدوا له

وظيفة في شركة زيم للشحن بمكتبها في حيفا، حيث أعتقد أنه ظل يعمل بها حتى وفاته في حيفا.

وفي إحدى زياراتنا الأخيرة لحيفا مع زوجتي بيرثا في أواسط سنوات الثمانين من القرن الماضي، جاءت جيزيل إبنة أختى لزيارتنا في فندق دان كارميل. وكان منظر مياه البحر المتوسط الزرقاء يملأ الأفق في ذلك المساء وتحيط بها حمرة الشفق بينما ينساب هواء البحر العليل نحو اليابسة. كانت جيزيل لاتزال تحتفظ بجمالها رغم بلوغها سن الستين وقد ترملت. وفي وقت لاحق لقي أحد ولديها- شاي- مصرعه بانفجار قنبلة وهو خارج من لبنان بعد اجتياح الجيش الاسرائيلي له.

قمنا أنا وبتينا بالعديد من الزيارات من الولايات المتحدة الى عدة مناطق باسرائيل- وأحياناً كنا ندلف الى منزلنا بفرنسا- خلال تلك الزيارات. وفي كل مرة كان يزداد حبنا وعواطفنا واخلاصنا لاسرائيل. وبالاضافة الى أبناء وبنات أشقائي وأصدقائي باسرائيل كان لدى بتينا الكثير من الأقارب والأصدقاء الذين يرحبون بنا.

احتفــالات بمناســبة عيــد
ميلاد ملكا الخامس والسبعين

في الحادي عشر من نوفمبر ١٩٨٤ نظم إبناي ايفيلين وجيفري احتفالاً بفندق تاريتاون هيلتون في ويستشيستر بمناسبة عيد ميلادي الخامس والسبعين تميز بالأبهة حيث عزفت الموسيقى وتم تقديم الشمبانيا وأطباق الطعام. وانغمس جميع أفراد العائلة والأصدقاء في تبادل الحديث والرقص. وكان من بين هؤلاء الضيوف أصدقاء من محفل بناى-بريث والجالية اليهودية في ويستشيستر وفي مقدمتهم حاخامهم أرنولد تورتسكي، وأشقائي وشقيقاتي وأزواجهم والأبناء والأحفاد- ثمانية وعشرون منهم تصحبهم زوجاتهم- والعديد من الأصدقاء من السودان والولايات المتحدة. جاءوا من جميع أنحاء نيويورك من جلوفرسفيل ومقاطعة ويستشيستر، من اف.تي.لي بكليفتون ومن أنحاء نيوجيرسي، من هايلاند بارك وشيكاغو في اليونويس، ومن فيلاديلفيا، ومن فينا وريستون ومكلين بفرجينيا، ومن ميامي وبوكا راتون في فلوريدا. وفي بادرة ذات مغزى وضعت أعلام الدول التي عاش فيها هؤلاء الناس على المناضد التي جلسوا حولها- السودان ومصر واسرائيل وسويسرا وانجلترا وفرنسا. وقد ظل ولداي يمطراننا أنا وزوجتي بحبهم وتدليلهم في كل يوم وكل مناسبة. كما ظل أبناؤهما يغمراننا بالسعادة والمرح.



الياهو واخوته خلال الاحتفال بعيد ميلاده

وفي الاحتفال الذي أقيم بمناسبة عيد ميلادي الثمانين إستمتعت كثيراً- من بين مظاهر الفرح الأخرى- بكلمات موحية ومُعبّرة من ابنتي ايفيلين وزوجها ديفيد كلين جاء فيها:

أيلي رجل جاء من السودان
وقد تزعم عشيرة ملكا
جاء الى الولايات المتحدة
من أجل طفليه، إلا أنه
عثر على كثير من المعجبين
أقام في وايت بلينس
ولم يتردد في نجدة الغرباء
وأبدى اهتماماً
وقدرة على التعلم
ولم يلبث أن أصبح
رئيساً لبناى-بريث
وهو الآن في الثمانين
نشطاً كما كان في العشرين
نتمنى لك صحة جيدة
وبعض الثروة ايضاً
حتى عيد ميلادك العشرين
بعد المائة

محاولات لإقامة نشاط تجاري مع السودان

استجبت لضغوط مارسها عملائي ووكلائي في السودان واستأنفت محاولات التصدير الى السودان من الولايات المتحدة تحت اسم سجل جديد (ملكا للتصدير) وبعد محاولات استغرقت وقتاً ومصروفات تمكنت من التعرف على المصدّرين الامريكيين الرئيسيين للسلع المطلوبة، ومن بينها الخميرة لصناعة الخبز والكيماويات الصناعية لصناعة البلاستيك والزيوت الحيوانية لصناعة الصابون والثلاجات ومحركات أجهزة الإطفاء والصلب للبناء، والقمح والدقيق والذرة البيضاء والصفراء وحبوب الباقلاء وغيرها من المنتجات الزراعية المطلوبة في الفترات التي يحدث فيها نقص في المحصولات- وجميعها متوفرة بالولايات المتحدة التي تعتبر منتجها الأول.

وبعد إحراز بعض النجاحات الأولية الصغيرة توصلنا الى أن الولايات المتحدة ببعدها الجغرافي عن السودان يكون التصدير منها مكلفا مقارنة بمصادر أخرى كالدول الأوروبية ودول الشرق الأقصى. كما أن صادرات الصلب والمنتجات الزراعية تجد دعماً كبيراً في فرنسا ودول السوق الأوروبية المشتركة الأخرى يجعل من الصعوبة منافستها. والأمل معقود على اتفاقية الجات التي صادق عليها الكونجرس الامريكي في عام ١٩٩٤ في أن تساعد الولايات المتحدة على المنافسة.

وحتى في إطار المساعدات الامريكية للسودان والتي كان يتسلم منها حتى عام ١٩٨٥ حوالي ٢٠٠ مليون دولار سنوياً- تحت حكم الجنرال نميري- كانت تكلفة المنتجات الامريكية المصدرة عالية جداً بالمقارنة مع تكلفة المنتجات المماثلة المستوردة بصورة حرة من السوق الأوروبية المشتركة وغيرها من المصادر.

وبعد سن الخامسة والسبعين تعرضت لبعض المتاعب الصحية ولكن بفضل العناية الإلهية والتقدم الذي أحرزه الطب في العالم والمحبة والعناية التي تلقيتها من زوجتي بتينا وابنيّ ايفيلين وجيفري تماثلت للشفاء. وفي أكتوبر ١٩٨٤ أجريت لي

عملية جراحية في الشريان التاجي. وخلال عامي ١٩٨٧ و١٩٨٩ أجريت لي عملية في العين ثم تثبيت عدستين في كلا العينين ثم عملية أخرى في المرارة، كما أجريت لي عملية جراحية في الفخذ إثر إصابة في حادث سقوط.

وعلى الرغم من كل ذلك احتفظت بروح معنوية عالية وواصلت جميع أوجه نشاطي بعد أن عوفيت تماماً. وأقوم بالفحص الدوري المنتظم لصحتي وأواصل التعلم والقراءة والكتابة وحضور الاجتماعات والمناقشات والاحتفالات والسفر والعناية بشؤوني واستمتع بحياتي العائلية.

إنتهى

الفهرس



مكي حسن أبو قرجة

- من مواليد مدينة كوستي بالسودان
- وتلقى تعليمه في مدارسها : النصر الشمالية الابتدائية (نمرة ٢) والأميرية الوسطى ثم المؤتمر الثانوية بأم درمان
- تخرج في كلية الحقوق - جامعة القاهرة فرع الخرطوم.
- عمل بالتدريس فترة من الزمن
- تحول إلى الصحافة واشتغل في البحرين ثم دولة الإمارات العربية المتحدة
- يعمل حالياً بمؤسسة الامارات للإعلام صحيفة (الاتحاد)



في بداية القرن العشرين أخذت أفواج اليهود تتدفق نحو السودان تجاراً ومغامرين وموظفين في السلطة الاستعمارية ومؤسساتها. ولم يلبث التجار منهم أن استأنفوا نشاطاً تجارياً محموماً في أسواق جديدة واعدة. فكونوا الشركات وراكموا الثروات وشيدوا المنازل الواسعة الفخمة وانتقل بعضهم الى المدن الإقليمية، وأدخلوا أبناءهم المدارس، كلية غردون وكمبوني... أقاموا علاقات واسعة مع السودانيين وتشربوا الحياة الثقافية السودانية وتأثروا بالقيم الاجتماعية والأخلاقية. إلا أنهم ظلوا يهوداً ملتزمين بديانتهم، فأقاموا معبداً ونادياً اجتماعيا وأخذوا يتصاهرون في إطار جاليتهم.. تكاثروا حتى بات لديهم مقبرتان في الخرطوم وأم درمان. استمر حالهم ذاك حتى تفجر الصراع العربي - الاسرائيلي وأعلن الكيان الصهيوني قيام دولته عام ١٩٤٨ فحدث تحول واضح في شعور العرب والمسلمين تجاه اليهود المقيمين ببلدانهم وإن لم يرق الى مستوى المضايقات السافرة حتى وقع العدوان الثلاثي على مصر في عام ١٩٥٦. أخذت الجاليات اليهودية في الدول العربية - بما في ذلك السودان - ترتب أوضاعها وفق رؤى جديدة، فأخذوا يتسللون الى اسرائيل والى الدول الأوروبية والولايات المتحدة.. وفي السودان ربما يكونوا قد تباطأوا قليلاً إلا أنهم أخذوا يغادرون عائلات وفرادى عبر مصر واريتريا حتى منتصف سنوات الستين.